

سُورَةُ هُودٍ

حِينَ تَبْقَى مُسْتَقِيمًا وَالْعَالَمُ يَنْهَارُ



رَدَّادُ السَّلَامِ

سُورَةُ هُودٍ

حِينَ تَبْقَى مُسْتَقِيمًا وَالْعَالَمُ يَنْهَارُ

رَدَّادُ السَّلَامِي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليست سورة هود سجلاً قديماً لأمم مرّت، ولا متحفاً قرآنياً تُعرض فيه بقايا الطوفان، ومدائن عاد، وبيوت ثمود، وأسواق مدين، وقصور فرعون. إنّها سورة الحاضر الإنساني المتكرر؛ فما تزال الأرض تُنبت عاداً كلما اغترّت الحضارة بقوتها، وتُخرج ثمود كلما تحوّل الترف إلى تمرّد، وتعيد مدين كلما انفصل الاقتصاد عن الأخلاق، وتُقيم فرعون كلما ظنّ الحاكم أن الجماهير خلقت لتتبع خطاه ولو قادها إلى النار.

تتغيّر الأسماء، ولكن المرض واحد.

وتتبدّل الأبنية، ولكن الغرور القديم يقيم فيها.

وتتطور أدوات الإنسان، ولكن قلبه قد يعود إلى جاهليته الأولى وهو يمسك بأحدث ما صنعت الحضارة.

في سورة هود نرى التاريخ من داخله، لا من واجهته. لا يحدثنا القرآن عن ضخامة القصور بقدر ما يكشف هشاشة الأرواح التي سكنتها، ولا يقف طويلاً أمام أدوات القوة، بل ينفذ إلى ذلك الخلل الصغير في القلب الذي يكبر حتى يصير طوفاناً يبتلع أمة، أو صيحة تقطع أنفاس مدينة، أو ريحاً تنزع حضارة من جذورها.

إن سقوط الأمم لا يبدأ حين تنهدم جدرانها، بل حين تنهدم موازينها.
ولا يبدأ الطوفان حين ينهمر الماء من السماء، بل حين يجفّ القلب عن قبول الحق.

ولا تُعقر الناقة أول مرة بالسكين، وإنما تُعقر حين يرى الناس آية الله ثم يقررون أن مصالحهم أثنى من الحقيقة.

ولا يحترق مجتمع لوط لحظة نزول العذاب؛ فقد كان يحترق منذ أن صار المنكر فيه مألوفاً، ثم صار المعروف غريباً، ثم صار الطاهر نفسه متهماً لأنه لم يشارك الجماعة سقوطها.

لهذا كانت سورة هود ثقيلة.

ثقيلة لا لأن ألفاظها غامضة، بل لأن مراهاها صافية. ومن أشد الأشياء على الإنسان أن يرى نفسه بلا زينة. إنها تجرّد الحضارات من دعاياتها، والطغاة من ألقابهم، والجماهير من أعارها، والدعاة من أوهام الطريق السهل، ثم تضع الجميع أمام حقيقة واحدة: أن الله لا يخفى عليه شيء، وأن كل حركة في التاريخ تسير إلى موعدها، مهما بدا الباطل واثقاً، ومهما ظهر المؤمن وحيداً.

وقد اقترنت هذه السورة في الذاكرة الإسلامية بشييب رسول الله ﷺ؛ إذ جاء في الحديث: «شَيَّبَتْنِي هُودُ وَأَخَوَاتُهَا». وليس بعيداً أن يكون في قلب هذه الهيبة ذلك الأمر العظيم: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا).

فالاستقامة ليست لحظة حماسة عابرة، ولا كلمة تضيء على اللسان ثم تنطفئ عند أول امتحان؛ إنها حمل الرسالة عبر طريق طويل، دون أن تتحرف تحت ضغط العداوة، أو تستعجل تحت وطأة الألم، أو تطغى حين تملك شيئاً من القوة.

إنها أن تبقى كما أمرك الله، لا كما تدفعك الظروف.

وهذا من أثقل مقامات العبودية.

لقد أردت في هذا الكتاب أن أقرب من سورة هود اقتراب القلب المتعلم، لا اقتراب من يزعم الإحاطة بأسرار كلام الله. سنبدأ من المعنى الذي يدل عليه اللفظ والسياق، ثم نفتح نافذة التأمل المنضبط؛ فننظر كيف تتحول القصة القرآنية إلى بصيرة، وكيف ينتقل خبر الماضين من صفحات التاريخ إلى أعماق النفس، وكيف نجد في نوح شيئاً من صبر الداعية، وفي ابنه مأساة الإنسان الذي وثق بالجبل ونسي رب الجبل، وفي عاد غرور القوة، وفي ثمود خيانة النعمة، وفي مدين فساد الميزان، وفي لوط عزلة الطهر، وفي موسى يقين الرسالة وهي تواجه سلطاناً يملك الأرض ولا يملك النجاة.

هذا كتاب عن الأنبياء، ولكنه أيضاً كتاب عن الإنسان.

عن خوفه ورجائه، وقوته وضعفه، واستقامته وانحرافه، وعن تلك اللحظة الحاسمة التي يقف فيها بين نداء الوحي وضغط الواقع، فيختار أحدهما، ثم يمضي اختياره ليصنع مصيره.

وهو كتاب عن الدعاة الذين طال انتظارهم، وعن المصلحين الذين استوحشوا الطريق، وعن أصحاب المبادئ حين يرون المجتمع يمضي إلى جهة غير التي يدعون إليها. تقول لهم سورة هود: ليس واجبكم أن تُكرهوا التاريخ على الاستجابة، ولكن واجبكم ألا يسمحوا للتاريخ أن يغيّر حقيقة الرسالة في قلوبكم.

فليست البطولة أن تنجو السفينة وحدها؛ بل أن تبنيها في الصحراء بينما يضحك منك الناس.

وليست البطولة أن تؤمن بالحق بعد انكشاف الغيب؛ بل أن تظل ممسكًا به حين تكون كل المشاهد الظاهرة كأنها تنقضه.

وليست الاستقامة أن تمشي في طريق مستقيم تحيط به الورود، بل أن تعرف اتجاه الله وسط ريح تعصف بك من كل جانب، ثم لا تتحرف.

سنمضي في هذه السورة كما يمضي المسافر ليلاً وفي يده مصباح. لن يبدد المصباح ظلمة الأرض كلها، لكنه سيكشف موضع القدم التالية. وذلك يكفي لمن عرف وجهته؛ لأن النجاة لا تحتاج أن ترى الطريق إلى نهايته، وإنما تحتاج أن تعرف من يقودك فيه.

الفصل الأول

الْقُرْآنُ الَّذِي أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ

حين يبدأ الإصلاح من تصحيح المصدر

تبدأ سورة هود قبل أن تبدأ القصص.

قبل السفينة والطوفان، وقبل الريح والصيحة، وقبل النار التي انقلبت بها قرى لوط، تضع السورة بين يدي القارئ حقيقة الكتاب الذي سيقصّ عليه تلك الأخبار: ﴿الرَّكَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

إنها تقدّم المصدر قبل الخبر؛ لأن قيمة المعرفة لا تنفصل عمّن جاءت منه. وقد يستمتع الإنسان إلى قصة واحدة من أفواه كثيرة، فتكون عند أحدهم حكاية للتسلية، وعند آخر مادةً للتفاخر القومي، وعند ثالث ميداناً للتخمين، لكنها حين تأتي من الله تصبح شهادة الحق على التاريخ.

﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

حكيم؛ فلا يضع كلمةً في غير موضعها.

خبير؛ فلا تخفى عليه الزوايا التي عجزت أعين المؤرخين عن بلوغها.

ولهذا لا يروي القرآن القصص بالطريقة التي يروي بها البشر. فالبشر تقف أبصارهم غالبًا عند سطح الحادثة: مَنْ انتصر؟ كم كان عدد الجنود؟ أين وقعت المعركة؟ وكيف انهارت المدينة؟ أما القرآن فيتجاوز ضجيج الوقائع إلى البذرة الأخلاقية التي أنبتتها. إنه لا يكتفي بأن يخبرك أن أمة سقطت، بل يكشف لك الفكرة التي سقطت بها، والشهوة التي أعمتها، والكبر الذي قطع بينها وبين النجاة.

التاريخ البشري يرى الانقراض.

أما القرآن فيرى الشقّ الأول الذي بدأ في الضمير، ثم اتسع حتى ابتلع البناء كله.

ومن هنا جاء وصف الكتاب بالإحكام ثم التفصيل. إحكامٌ يمسك وحدته الكبرى، فلا تتناقض أجزاؤه ولا تتصادم غاياته؛ وتفصيلٌ يقيم الحجة، ويوضح الطريق، ويفتح للإنسان منافذ البصيرة. فهو بناء متماسك، لكن كل نافذة فيه تطل على معنى. وهو نهر واحد، لكن كل آية تمنح الظمآن مذاقًا جديدًا من الهداية.

ثم تكشف الآية التالية الغاية الكبرى من هذا الكتاب كله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

تلك هي القضية التي تنتظم السورة جميعًا.

لم يكن صراع نوح مع قومه نزاعًا حول بناء سفينة، ولا صراع هود مع عاد خلافًا حول معنى القوة، ولا صراع صالح مع ثمود جدلًا بشأن ناقة، ولا صراع شعيب مع مدين مسألة تجارية منفصلة عن العقيدة. كان الصراع في جوهره سؤالًا واحدًا: مَنْ يستحق أن تكون له الكلمة العليا في حياة الإنسان؟

فعبادة الله ليست طقسًا معزولًا في زاوية من الحياة، بل تحريرٌ كامل للإنسان من كل سيادة تتنازع أمر الله. ولهذا حين انحرفت العبادة انحرف معها العمران، وفسد الاقتصاد، وطغت السلطة، وتمردت الشهوة، وتحولت القوة من أمانة إلى وثن.

كل فساد ظاهر له معبد خفي في القلب.

وحين يتوه الإنسان في التفاصيل، يعيده القرآن إلى أصل الداء: لقد أعطيت شيئًا من خصائص العبودية لغير الله. ربما عبدت هوائك، أو جماعتك، أو مصلحتك، أو قوتك، أو صورتك في أعين الناس. وربما لم تسجد لصنم من حجر، لكنك سمحت لصنم من الخوف أو الطمع أن يصوغ قراراتك.

وهنا تبدأ سورة هود عملية التحرير: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

إنها لا تضيف إلى القلب معبودًا جديدًا، بل تزيل منه سائر المعبودات الزائفة، حتى يبقى لله وحده. والتوحيد بهذا المعنى ليس فكرة تُحفظ، بل إعادة ترتيب كاملة لمراكز القوة داخل النفس. أن يصبح رضا الله أثقل من رضا الجماعة، وأمره أعلى من ضغط الواقع، ووعدته أوثق من الحسابات القريبية.

ومن يقرأ قصص السورة دون هذا المفتاح قد يرى حوادث متجاوزة؛ أما من يقرأها به فسيرى مرضاً واحداً يرتدي أثواباً متعددة، ويرى دعوة واحدة تخرج من أفواه أنبياء متتابعين: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

كأن الزمن يتغير، والأمكنة تتبدل، والأجيال تفتنى، لكن النداء يظل ثابتاً؛ لأن الإنسان، مهما تطورت أدواته، لا يخرج من حاجته إلى أن يعرف ربه، ويعرف موضعه من الكون، ويعرف لمن تكون طاعته الأخيرة.

وبعد التوحيد يأتي الاستغفار والتوبة: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾.

الاستغفار اعترافٌ بأن الطريق قد تلوّث.

والتوبة تغييرٌ للاتجاه.

ليس الاستغفار كلمة تُقال بينما تواصل القدم سيرها إلى الجهة نفسها؛ إنه صحو القلب أمام ما أحدثته الغفلة، أما التوبة فهي أن يستدير الإنسان بكليته نحو الله. ولذلك جمعت الآية بينهما: تنظيف ما مضى، وتصحيح ما يأتي.

إن رحمة الله لا تكتفي بأن تمحو آثار الطريق الخطأ، بل تفتح للعبد طريقاً جديداً يمشي فيه.

وهذه أول بشارات السورة الثقيلة: أن باب الرجوع مفتوح قبل أن يجيء الطوفان، وقبل أن تنزل الصيحة، وقبل أن تصبح الحضارات خبراً بعد عين.

فَاللَّهُ لَا يَأْخُذُ النَّاسَ عَلَى غَفْلَةٍ مِنَ الْبَيَانِ؛ يَرْسِلُ إِلَيْهِمُ الْكَلِمَةَ أَوَّلًا، وَيُطِيلُ لَهُمْ زَمَنَ الْمَرَاجَعَةِ، وَيُرِيهِمْ مَوْضِعَ الْخُلَلِ، ثُمَّ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْعُودَةِ.

إِنَّ الْعَذَابَ فِي سُورَةِ هُودٍ لَا يَنْزِلُ عَلَى أَنَاسٍ لَمْ يَجِدُوا بَابًا، بَلْ عَلَى أَنَاسٍ ظَلَّ الْبَابَ مَفْتُوحًا أَمَامَهُمْ طَوِيلًا، حَتَّى أَغْلَقُوهُ بِأَيْدِيهِمْ.

وَهُنَا تَظْهَرُ الرَّحْمَةُ فِي قَلْبِ الْإِنذَارِ. فَالْنَذِيرُ لَا يَرِيدُ أَنْ تَقَعَ الْكَارِثَةُ؛ إِنَّهُ يَكْشِفُهَا قَبْلَ وَقْعِهَا كَيْ تَنْجُو مِنْهَا. وَالبَشِيرُ لَا يَخْذَرُ الْإِنْسَانَ بِأَمْنِيَةِ رَخْوَةٍ، بَلْ يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي تَتَمَرُّ فِيهِ الْبَشَارَةُ.

لِهَذَا جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ: (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ).

فَالْإِنذَارُ وَحْدَهُ قَدْ يَصْنَعُ الْيَأْسَ، وَالبَشَارَةُ وَحْدَهَا قَدْ تَصْنَعُ الْغُرُورَ، أَمَّا الْوَحْيُ فَيُبْنِي قَلْبًا يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بَيْنَ خَوْفٍ يَوْقُظُهُ وَرَجَاءٍ يَحْمِلُهُ.

وَمِنْذَ مَطْلَعِ السُّورَةِ نَعْلَمُ أَنَّ الْقَادِمَ لَيْسَ عَرْضًا مُحَايِدًا لِلْمَاضِي. نَحْنُ مُقْبِلُونَ عَلَى مُحَاكَمَةِ كِبَرَى الْأَوْهَامِ الْإِنْسَانِ: وَهَمُّ الْقُوَّةِ، وَهَمُّ النِّسَبِ، وَهَمُّ الْكَثْرَةِ، وَهَمُّ الْمَالِ، وَهَمُّ الْجَبَلِ الَّذِي يَحْمِي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. وَتَسْقُطُ هَذِهِ الْأَوْهَامُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ، لِيَبْقَى فِي نَهَايَةِ الْمَشْهَدِ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يَسْقُطُ:

وَعَدَ اللَّهُ.

إِنَّ سُورَةَ هُودٍ تَبْدَأُ بِالْكِتَابِ الْمَحْكَمِ؛ لِأَنَّ الْعَالَمَ حِينَ يَضْطَرِبُ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانَ إِلَى مَرْجِعٍ لَا يَضْطَرِبُ مَعَهُ. وَإِذَا جُعِلَ وَعِيَهُ تَابِعًا لِلْوَاقِعِ، تَقَلَّبَ كُلَّمَا تَقَلَّبَ

الواقع، وسمّى الهزيمة حكمةً حين يعجز، وسمّى الطغيان ضرورةً حين يخاف، وسمّى التنازل مرونةً حين تضعف روحه.

أما القرآن فيمنحه نقطةً ثابتةً خارج العاصفة، ليقيس بها اتجاه الريح، لا ليجعل الريح هي التي تحدد له اتجاه الحق.

وهكذا يبدأ الإصلاح من تصحيح المصدر.

قبل أن نسأل: كيف نبني السفينة؟

علينا أن نعرف: مَنْ أمر ببنائها؟

وقبل أن نسأل: متى يأتي النصر؟

علينا أن نعرف: مَنْ وعد به؟

وقبل أن نخاف من ارتفاع الموج، علينا أن ندرك أن الماء نفسه لا يخرج عن سلطان الله.

ذلك هو أول زاد تقدمه سورة هود لقارئها: إذا كان الكتاب من لدن حكيم خبير، فلا تجعل اضطراب المشهد يُفقدك الثقة بحكمة من أنزل الكتاب، وخبرة من يرى المشهد كله.

الْقُرْآنُ الَّذِي أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ

حين يبدأ الإصلاح من تصحيح المصدر

بعد أن أعلن مطلع السورة مصدر هذا الكتاب وغايته، التفت الخطاب إلى الإنسان في أكثر حالاته التباساً: حين يحاول أن يختبئ.

(أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونِ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

قد يستطيع الإنسان أن يخفي موقفه عن الناس، وأن يرتب ملامحه بحيث لا تدلّ على ما يختبئ وراءها، وأن يلبس لكل مجلس وجهًا، ولكل مخاطب لغة، ولكل مصلحة مبدأً يناسبها؛ لكنه لا يستطيع أن ينقل قلبه إلى مكان لا يراه الله.

وهذه إحدى الحقائق التي يبدأ بها تحرير الضمير: أنك مكشوف أمام ربك، لا بمعنى الفضيحة، ولكن بمعنى استحالة الخداع.

فالإنسان يتقن فنون الستر. يستر طمعه بثوب الحكمة، وخوفه باسم المصلحة، وحسده بحجة النقد، وقسوته بعنوان الحزم، وتراجعته عن الحق باسم قراءة الواقع. وقد يطيل الشرح حتى يكاد يصدّق الحكاية التي صنعها لنفسه؛ غير أن الله لا يسمع العبارات وحدها، بل يعلم القلب الذي صاغها والدافع الذي حرّكها.

(يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ).

إنه يعلم الكلمة قبل أن تُكسى بالصوت، والنية قبل أن تتحول إلى حركة، والخطرة حين لم تكن سوى ارتعاشة خفية في أعماق النفس. ويعلم ما أخفاه الإنسان عن الناس، وما أخفاه عن نفسه حين ظل يراوغ الحقيقة حتى غابت عنه.

قد تنجح في تبرير نفسك أمام محكمة المجتمع، لكنك لا تستطيع أن تستعير عذراً أمام الله؛ لأنه يعلم الحكاية من بدايتها، ويعلم الموضع الذي كان يمكنك فيه أن تختار ثم اخترت، ويعلم أين كنت مكرهاً وأين ادّعت الإكراه، وأين عجزت وأين أحببت أن تبدو عاجزاً.

ولهذا لا تُنشئ مراقبة الله إنساناً مذعوراً، بل إنساناً صادقاً. إنها تخلصه من ضرورة التمثيل؛ لأن من علم أن الله يعرفه كما هو، لم يعد محتاجاً إلى أن يصنع لنفسه صورة زائفة. يكفيه أن يصلح قلبه؛ فالصورة التي يراها الله هي الحقيقة الوحيدة التي ستبقى بعد سقوط الصور كلها.

ثم تنقل السورة القلب من الخوف على صورته إلى الخوف على رزقه:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ما أوسع هذه الآية، وما أدفأها!

إنها تمرّ على الأرض كلها في لحظة واحدة؛ على الطائر في عشه، والنملة في جوف الصخرة، والسمكة في ظلمات البحر، والإنسان في بيته الضيق،

والغريب المنقطع في أرض لا يعرف فيها أحدًا. تمرّ عليهم جميعًا وتقول: لم يسقط أحد من علم الله، ولم تُترك دابة خارج كفالتة.

ليس معنى ذلك أن يترك الإنسان السعي، فالدابة نفسها تتحرك، والطير تغدو خماصًا وتعود بطائًا؛ ولكنها تتحرك في ملك الله، وتطلب من خزائنه، وتأكل مما قدر لها. فالسعي باب الرزق، لا خالق الرزق؛ والسبب طريق، لا ربّ.

وكثير من الانحرافات الأخلاقية تبدأ حين يظن الإنسان أن رزقه في يد مخلوق. عندئذ يبيع شيئًا من كرامته، أو يصمت عن حق، أو يزيّن باطلاً، أو يخشى أن يقول كلمة تغلق عليه بابًا. وما يدري أن الباب الذي يخاف إغلاقه ليس إلا ثقبًا صغيرًا في جدار خزائن لا تنفذ.

حين يوقن القلب أن رزقه على الله، لا يتوقف عن العمل، لكنه يتوقف عن العبادة الخفية للأسباب.

يعمل ولا يركع لعمله.

ويأخذ بالأسباب ولا يهبها قلبه.

ويشكر من أحسن إليه دون أن يرفعه إلى مقام المالك لمصيره.

إن الذي يعلم مستقر كل دابة ومستودعها لا يضلّ عنه عنوانك. والذي رزقك حين لم تكن تملك يدًا تمتد بها إلى الطعام، لن يعجز عن رزقك بعد أن منحك العقل والحركة والقدرة على السعي.

لكن النفس تضطرب لأنها ترى اللحظة ولا ترى الكتاب المبين. ترى الباب المغلق ولا ترى الأبواب التي لم تُفتح بعد. ترى انقطاع السبب، فتظن أن العطاء قد انقطع؛ كأن الله لا يملك إلا الطريق الذي عرفته، ولا يستطيع أن يأتيك الخير إلا من الجهة التي اعتدتها.

وهنا يعيد القرآن القلب إلى سعة التدبير: ﴿كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

رزقك ليس فكرةً طارئةً نشأت بعد قلقك، ولا قرارًا مستعجلًا سيُتخذ حين ترفع شكواك؛ إنه داخل في علم الله وتقديره. قد يخفى عليك طريقه، لكنه لا يخفى على من كتبه. وقد يتأخر عن التوقيت الذي تشتهي، لكنه لا يخطئ الموعد الذي تقتضيه الحكمة.

ثم ترتفع السورة بالإنسان من الأرض وأرزاقها إلى أفق الخلق كله:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

لم يقل: أيكم أكثر عملًا، بل قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

فليس الميزان حركة الجوارح وحدها، ولا كثرة الضجيج الذي يصنعه الإنسان حول نفسه. قد يملأ المرء الأرض حديثًا عن الخير، ولا يضع في ميزان الله إلا قليلًا؛ وقد يعمل آخر في صمت، فيرفع الله عمله لأن الصدق ثقيل وإن كان خفيًا.

حسن العمل يجمع سلامة القصد وصواب الطريق. فلا يكفي أن تريد الخير إذا سلكت إليه طريقاً يفسده، ولا يكفي أن يكون ظاهر الفعل صحيحاً إذا كان باطنه يطلب التصفيق. إن الله لا يختبر قدرة الإنسان على أن يبدو صالحاً، بل يبتلي صدقه في أن يكون صالحاً حين لا يراه أحد.

والحياة، في ضوء هذه الآية، ليست مسرحاً للعبث، وإنما ميدان امتحان. المال سؤال. والفقر سؤال. والسلطة سؤال. والضعف سؤال. والنجاح لا يعني أن الله راضٍ عن صاحبه، كما أن الألم لا يعني أن الله أهانه؛ فكلاهما ورقة في امتحان مختلف.

قد يُبتلى الإنسان بما يُعطى أشد مما يُبتلى بما يُمنع؛ لأن المنع يدفعه إلى البحث عن الله، أما العطاء فقد يدفعه إلى نسيانه. وربّ بابٍ أغلقه الله فحفظ به قلباً، وربّ بابٍ فتحه فدخلت منه فتنة لم ير صاحبها أنيابها إلا بعد أن استقرت فيه.

إن السؤال الحقيقي ليس: ماذا أعطيت؟

بل: ماذا صنعت بما أعطيت؟

وليس: ماذا فقدت؟

بل: ماذا بقي من إيمانك بعد الفقد؟

(لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

وهنا ينكشف معنى التاريخ الذي ستعرضه السورة. إن قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ليست أخبار أمم خرجت من الامتحان

وانتهت؛ بل هي نماذج لإجابات الإنسان حين يوضع أمام السؤال. منهم من أحسن العمل فنجا ولو كان ضعيفاً، ومنهم من أساءه فهلك ولو كان قوياً. ولم تغير كثرة الهالكين حقيقة الجواب، كما لم تغير قلة الناجين معيار النجاح.

لكن الذين حبسوا عقولهم داخل جدران الدنيا لم يستطيعوا أن يتصوروا بعثاً بعدها: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

إن إنكار الآخرة ليس دائماً نتيجة سؤال عقلي بريء؛ فقد يكون رغبةً دفينيةً في الإفلات من معنى المسؤولية. فالإنسان الذي يريد أن يعيش بلا حساب، يسهل عليه أن يختار تصورًا للكون لا حساب فيه.

الآخرة تمنح أفعالنا وزنها النهائي. فمن دونها يمكن للظالم أن يموت في قصره، وللمظلوم أن يموت في سجنه، ثم تغلق القصة وكأن العدل لم يكن إلا أمنيةً ضعيفة. أما الإيمان بالبعث فيخبرنا أن الصفحة التي نراها ليست آخر الكتاب، وأن الموت لا يمحو القضية، بل ينقلها إلى المحكمة التي لا تضيق فيها وثيقة، ولا تشتري فيها شهادة، ولا يستطيع قوي أن يؤجل جلستها.

ولهذا كان البعث ضرورةً للعدل، كما هو حقيقة من حقائق الوحي.

إن الدنيا تعرض المشهد ناقصاً: أنبياء يُطاردون، ومصلحون يُتهمون، وطغاة تتسع قصورهم، ومظلومون تضيق بهم الأرض. ولو كانت هذه هي النهاية لظل كثير من الأسئلة جروحاً مفتوحة في ضمير الوجود. لكن الآخرة ليست هامشاً يُضاف إلى الحياة؛ إنها النصف الذي يكتمل به معناها.

وحين يتأخر العذاب، يسخر المستعجلون: (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ).

يرون الإمهال عجزاً، ويرون امتداد الحبل دليلاً على أنه لن يُجذب أبداً. وهذه من أقدم أوهام الطغيان: أن يخلط بين تأخر العقوبة وسقوط العدالة. لكن الساعة لا تتأخر لأنها نسيبت موعدها.

إن الله يمهل لأن رحمته تفتح مساحة للتوبة، ولأن حكمته تستوفي الحجة، ولأن سننه تُنضج نتائج الأفعال حتى تخرج من داخلها. وقد يكون في الإمهال ابتلاء للمظلوم أيضاً: هل يحفظ يقينه أم يستدرجه ببطء العدالة إلى الشك؟ وهل يبقى على أخلاقه أم يتشبه بظالمه بحجة أن الطريق طويل؟

(أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

كانوا يحيطون بالعذاب استهزاءً، فلما جاء أحاط بهم. كانوا يجعلونه موضوعاً للسخرية، فأصبحوا هم موضوعاً للعبرة. وما أعجب انقلاب المواقع حين تنتهي المهلة: يضحك الباطل طويلاً، ثم تأتي لحظة واحدة تفسر ذلك التاريخ كله.

وبهذا يثبت مطلع السورة أولى قواعدها الكبرى: أن الحق لا يُقاس بسرعة ظهوره، وأن وعد الله لا يُقاس بقصر انتظار الإنسان، وأن تأخر الجزاء لا يعني غياب الرب المدبر.

بين الكتاب المحكم والجزاء المؤجل يعيش المؤمن امتحانه.

عليه أن يثق بالمصدر حين تتكاثر الأصوات، وأن يراقب قلبه حين يستطيع الاختباء من الناس، وأن يسعى في رزقه دون أن يعبد أسبابه، وأن يحسن عمله لا أن يكثر صورته، وأن يؤمن بالآخرة حين يبدو مشهد الدنيا ناقصًا، وأن ينتظر عدل الله دون أن يفسد طول الانتظار استقامته.

هذه هي الأرض التي ستنبئ فوقها قصص السورة.

فقبل أن يواجه نوحٌ قومه، كان لا بد أن نعرف من أين يستمد يقينه.

وقبل أن يبني السفينة، كان لا بد أن نعرف لماذا يصدق أمرًا تسخر منه حسابات الأرض.

وقبل أن يعلو الموج، كان لا بد أن يستقر في القلب أن الكون ليس فوضى، وأن الماء واليابسة والرزق والأجل والمصير كلها في تدبير الحكيم الخبير.

إن أول سفينة يجب أن تُبنى في سورة هود ليست من ألواح ومسامير.

إنها سفينة اليقين داخل القلب.

فإذا استقام بناؤها، أمكن للإنسان أن يعبر الطوفان ولو أحاط به من كل جانب.

الفصل الثاني

الْإِنْسَانُ بَيْنَ الْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ

امتحان القلب بتقلب الأحوال

لا تكشف الشدائد حقيقة العالم من حولنا فحسب، بل تكشف حقيقتنا نحن أيضاً. ففي الرخاء يستطيع الإنسان أن ينسج عن نفسه صورةً جميلة؛ يظن أنه ثابت، راضٍ، حكيم، وأن إيمانه تجاوز حدود الاضطراب. فإذا تغير عليه وجه الحياة، انزاحت الزينة، وخرجت النفس من وراء كلماتها.

ولهذا تنتقل سورة هود من الحديث عن إحكام الكتاب وتدبير الكون إلى وصف قلب الإنسان وهو يتقلب بين النعمة والمحنة: ﴿وَلَيُنْ أَدَقُّنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا﴾.

اختارت الآية لفظ الذوق؛ لأن الإنسان في الدنيا لا يملك النعمة ملكاً مطلقاً، وإنما يذوقها زمناً. الصحة مذاق، والأمن مذاق، والمال مذاق، والألفة مذاق. يمرّ الشيء بالقلب فيمنحه لحظةً من السعة، ثم قد يبقى وقد يرتحل.

لكن الإنسان ينسى هشاشة العلاقة بينه وبين ما بين يديه. يعتاد النعمة حتى يظنها جزءاً من تكوينه، وحقاً ثابتاً لا يقبل الزوال. ثم إذا نُزعت منه لم يشعر أنه فقد عطيةً، بل شعر كأن الوجود خانه، وكأن الله لم يُحسن إليه قط.

(إِنَّهُ لَيُؤَسُّ كُفُورٌ).

يُؤَسُّ من الآتي، كفورٌ بالماضي.

يقنط من الرحمة التي لم تأت بعد، وينسى الرحمة التي أحاطته قبل البلاء. وكأن الألم يمحو ذاكرته، فلا يعود يرى من حياته إلا اللحظة التي تضغط عليه.

وهنا تظهر إحدى مشكلات الإنسان العميقة: أنه يقرأ ربّه من خلال حالته، بدل أن يقرأ حالته من خلال معرفته بربه.

فإذا أُعطي قال في أعماقه: إن الله يكرمني.

وإذا مُنع تسلل إليه الشعور بأن الله تركه.

مع أن العطاء قد يكون امتحانًا، والمنع قد يكون إنقاذًا، وكلاهما يجري بعلم الحكيم الخبير.

إن الرحمة لم تكن ملكًا خرج من خزائن الإنسان ثم سُلِب منه، بل كانت من الله منذ البدء: ﴿مِمَّا رَحْمَةً﴾. وهذه الإضافة وحدها تعيد ترتيب المشهد؛ فما دام مصدرها باقياً، فإن ذهاب صورة منها لا يعني نفاد الرحمة كلها.

قد يغلق الله نافذة، لكن السماء لا تزال مفتوحة.

وقد ينزع عطيةً، بينما يهيئ في الخفاء عطيةً أخرى لا تشبهها، وربما لم يكن القلب مستعداً لاستقبالها قبل ألم الفقد.

غير أن الإنسان ينظر إلى الوعاء الذي فرغ، ولا ينظر إلى الخزانة التي لا تنفذ.

إنه يظن أن الرحمة هي الشيء الذي عرفه وحده: هذا الشخص، أو هذا العمل، أو هذا البيت، أو هذه المكانة. فإذا مضى الشيء قال: مضت الرحمة. وما يدري أن الرحمة أوسع من الصورة التي أحبها، وأن لله طرائق في العطاء لم تخطر له على بال.

وقد لا يكون المنع خاليًا من الرحمة أصلًا. فكم من شيء بكى الإنسان عند فقده، ثم رأى بعد سنين أن بقاءه كان سيقوده إلى موضع أشد ألمًا. وكم من بابٍ ضربه بيديه حتى أوجعه الطرق، ثم اكتشف أن وراءه هاوية لا نجاة.

لكن هذه المعرفة لا تُطلب من الإنسان بعد انكشاف الحكمة فقط؛ إنما مقام الإيمان أن يثق بحكمة الله حين تكون الحكمة محجوبة.

أن يقول بقلبه: لا أفهم، لكنني أعلم أن ربي لا يعبث بي.

ولا يعني ذلك أن الألم وهم، أو أن المؤمن لا يحزن. فقد بكى الأنبياء، وضاعت صدورهم، وطال انتظارهم، واشتد بهم الكرب. إنما الفرق أن الحزن يمر في قلب المؤمن ولا يتحول إلى عقيدة في اليأس، والألم يهزه لكنه لا يقتل ثقته بالله.

يمكن للعين أن تبكي، ويبقى القلب موقنًا.

ويمكن للإنسان أن يشكو ضعفه إلى الله، دون أن يشكو الله إلى خلقه.

فالشكوى إلى الله عبادة؛ لأنها تعترف بأن الفرج عنده. أما اليأس منه فهو باب مظلم يوهم صاحبه أن الألم أكبر من الرحمة، وأن اللحظة الحاضرة أقوى من الوعد.

حِينَ يَعُودُ الرَّخَاءُ

ثم تعرض السورة الوجه المقابل من اضطراب الإنسان: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

في الحالة الأولى نُزعت منه الرحمة فتحول إلى يأس وكفران، وفي الثانية أُذيق النعماء بعد الضراء فتحول إلى فرح متبختر وفخر متعالٍ.

لم يتعلم من الحرمان التواضع، ولم تمنحه النجاة بصيرةً أعمق في ضعفه؛ إنما انتقل من عبودية الألم إلى غرور العافية.

﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾.

قالها وكأن الشدة لن تعود، وكأن الحياة وقّعت له عهدًا دائمًا بالأمان. نسي سرعة تقلب الأيام، ونسي كيف كان بالأمس يمد يديه بحثًا عن منفذ. وما إن انكشف عنه الضر حتى عاد ينسب قوته إلى نفسه، ويتحدث عن نجاته كما لو أنه هو الذي شقّ لنفسه الطريق.

إن بعض الناس لا تغيّرهم الشدائد، بل تؤجل غرورهم فقط.

حين يضعفون يتواضعون لأنهم لا يملكون خيارًا، فإذا استعادوا القدرة عاد الكبير من مخبئه. لم تكن المحنة قد طهرت القلب؛ كانت قد ضغطت عليه فحسب. فلما زال الضغط خرج ما فيه من جديد.

والفرح المذموم هنا ليس سرور القلب بنعمة الله؛ فذلك شعور فطري جميل، بل هو الفرح الذي يفصل النعمة عن المنعم، ثم يحولها إلى منصة للتعالي على الناس.

السرور يقول: الحمد لله الذي نجاني.

أما الفخر فيقول: انظروا كيف نجوت.

السرور يرقق القلب؛ لأنه يرى الفضل لله.

أما الفخر فيقسّيه؛ لأنه يتوهم أن الفضل خرج منه.

وهكذا يتقلب الإنسان غير المهدّب بالوحي بين طرفين: إذا مُنِعَ انهار، وإذا أُعْطِيَ استكبر. لا يستطيع أن يحمل الفقر دون يأس، ولا الغنى دون بطر. تصبح الظروف هي التي تكتب عقيدته كل صباح؛ فإن أشرقت الدنيا آمن بالرحمة، وإن أظلمت شكّ في الطريق.

الْإِسْتِثْنَاءُ الَّذِي يَصْنَعُهُ الْإِيمَانُ

لكن السورة لا تترك الصورة مغلقة، بل تفتح نافذة الاستثناء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الصبر هنا ليس جمودًا باردًا، ولا تعطيلًا للحركة، ولا استسلامًا للظلم. إنه القوة التي تمنع الظروف من أن تعيد تشكيل قلب الإنسان بعيدًا عن الله.

الصابر يتألم، لكنه لا يجعل ألمه حجةً على ربه.

وينتظر، لكنه لا يحوّل الانتظار إلى فراغ.

ويُمنع، لكنه لا يبيع مبادئه ليسترده ما مُنع منه.

ويُعطي، لكنه لا يظن أن العطاء شهادة تفوق على الآخرين.

إن الصبر يحفظ الداخل من الانهيار، والعمل الصالح يحفظ الخارج من التعطل. ولهذا جمع القرآن بينهما؛ لأن صبرًا لا يثمر عملاً قد ينقلب إلى خمول، وعملاً لا يسنده صبر ينطفئ عند أول تأخير.

(صَبِرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

كأن الآية تقول: لا تجعل المحنة توقف خيرك.

فإذا ضاق رزقك، لا تضيق أخلاقك.

وإذا خذل الناس، لا تخذل الحق.

وإذا تأخر الفرج، لا تؤجل صلاحك إلى أن يأتي.

وإذا جرح قلبك، لا تجعل جرحك سكينًا تجرح بها الأبرياء.

ليس صلاح الإنسان أن يكون لطيفاً حين تلتطف به الحياة؛ إنما صلاحه أن يحفظ عدله حين تظلمه، وأمانته حين يخونه غيره، ونقاؤه حين يحيط به التلوث.

تلك هي الاستقامة التي تمهّد لها سورة هود منذ بدايتها.

ثِقَلُ الرِّسَالَةِ

بعد تصوير تقلّب النفس البشرية، يلتفت الخطاب إلى رسول الله ﷺ، وهو يحمل القرآن إلى قوم لا يكتفون برفضه، بل يطالبونه بما يناسب أهواءهم: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

ما أدقّ هذا الخطاب، وما أشدّ قربه من قلب كل حامل للحق!

فالداعية لا يتعرض دائماً لإغراء ترك الرسالة كلها؛ فذلك واضح فاضح قد تنفر منه نفسه. لكن الفتنة تأتيه أحياناً في صورة حذف جزء، أو تأجيل حقيقة، أو تخفيف معنى، أو انتقاء ما يرضي الجمهور وترك ما يثير اعتراضه.

لا يقال له: اهدم الرسالة.

بل يقال: اجعلها أكثر قبولا.

لا تنطق بهذا الآن.

لا تفتح تلك القضية.

حدّث الناس بما يحبون، ودع ما يزعجهم.

ومن هنا جاء التعبير القرآني: ﴿تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾. فالمعركة قد تبدأ حول «البعض»، لكنها تنتهي بتغيير الكل؛ لأن الوحي بناء، وإذا صار رضا الناس هو الذي يقرر أي أحجاره يبقى وأيها يُنزع، لم يعد البناء لله.

كان المشركون يريدون أن تأتي الرسالة وفق تصورهم: كنزٌ يثبت مكانة الرسول في موازينهم المادية، أو ملكٌ يحقق الصورة الخارقة التي اشتراطوها. لم يسألوا عن الحق الذي في القرآن، بل عن الزينة التي تحيط بحامله.

إنهم يقيسون صدق الفكرة بثراء صاحبها، وقيمة الرسالة بمقدار ما تملكه من أدوات الإبهار.

وهذا مرض يتكرر في كل عصر. قد يُعرض الحق بلغة صادقة عميقة فلا يلتفت إليه الناس؛ لأن قائله لا يملك منصباً أو مالاً أو جمهوراً، ثم تُقال الفكرة الهزيلة من فوق منصة كبيرة فتتلقاها العيون كأن الحجم قد تحول إلى برهان.

لكن الله يعيد رسوله إلى حدود مهمته: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾.

ليست مهمتك أن تتحكم في قلوبهم، ولا أن تخرع لهم آيات تناسب شروطهم، ولا أن تحوّل الرسالة إلى سلعة تخضع لأذواق السوق. مهمتك أن تبلغ؛ أما نتائج البلاغ فليست ملكك.

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ).

يا لها من راحة ثقيلة المعنى!

راحة؛ لأنها ترفع عن الداعية عبء التحكم في النتائج.

وثقيلة؛ لأنها لا ترفع عنه أمانة البلاغ.

ليس مطلوباً منك أن تهدي من أحببت، لكن مطلوب منك ألا تحجب عنه ما أنزل الله. وليس مطلوباً أن تنتصر في كل جولة، ولكن مطلوب ألا تجعل خوف الهزيمة يغيّر رايتك.

إن من أشد ما يرهق أصحاب الرسائل أن يحملوا أنفسهم مسؤولية استجابة الناس. فإذا لم يُستجب لهم، بدؤوا يفتشون في أصل الرسالة عما يمكن حذفه، بدل أن يفتشوا في أسلوبهم عما يمكن إحسانه. والفرق عظيم بين تطوير طريقة البلاغ وتحريف مضمون البلاغ.

يمكن أن تجدد اللغة، لكنك لا تبدل الحقيقة.

ويمكن أن تراعي أحوال المخاطبين، لكنك لا تجعل أهواءهم مصدراً.

ويمكن أن تتدرج بحكمة، لكنك لا تجعل التدرج اسماً لطيفاً للتنازل الدائم.

فالرسول نذير، والله وكيل. وحين تختلط الوظيفتان، يفسد الداعية رسالته؛ إذ يحاول أن يضمن النتيجة بوسائل لم يأذن بها الله.

التَّحْدِي الَّذِي كَشَفَ مَصْدَرَ الْقُرْآن

ثم تنتقل السورة إلى تحدي المكذبين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

لقد اتهموا الرسول ﷺ بأنه افترى القرآن، فجاء التحدي من جنس الدعوى. إن كان هذا الكلام صناعةً بشرية، فباب الصناعة البشرية مفتوح، واللغة لغتكم، والبيان ميدانكم، وأنتم أهل الفصاحة والجدل. فهاتوا عشر سور مثله، واستعينوا بمن شئتم.

غير أن العجز لم يكن عجزًا عن جمع الكلمات؛ فالكلمات نفسها كانت تجري على ألسنتهم. وإنما كان عجزًا عن صناعة هذا النظم الذي تتعانق فيه الدلالة والعبارة، والعقيدة والتشريع، والخبر والتربية، والرهبة والجمال.

كانوا يملكون الحروف، لكن الحروف في القرآن خرجت من حدود اللغة البشرية المألوفة إلى مقام لا يُنال.

مثل من يملك الألوان كلها، لكنه لا يستطيع أن يرسم الفجر.

ومثل من يعرف أسماء النغمات، لكنه لا يستطيع أن يؤلف الصوت الذي يوقظ الروح.

ثم يأتي الحكم: ﴿قَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

(أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ)؛ ولذلك يحمل من إحاطة المعنى ما لا يملكه الإنسان المحدود. يخاطب الفرد والجماعة، واللحظة والتاريخ، والسريرة والحضارة، ثم يظل عطاؤه متجددًا لا تنفد دلالاته ولا يبلى أثره.

لكن البرهان لا يؤدي وظيفته في قلب قرر مسبقًا ألا يخضع. ولهذا انتهت الآية بالسؤال الحقيقي: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

فالقضية ليست دائمًا نقص دليل، بل قد تكون رفض تسليم. وقد يعرف الإنسان أن الحق أمامه، لكنه يشعر أن الاعتراف به سيطلبه بتغيير نفسه، فيفضل أن يواصل الجدل؛ لأن الجدل أقل كلفة من التحول.

إن الإسلام ليس أن يعجب المرء بجمال القرآن فقط، بل أن يسلم له قيادة قلبه وحياته. فكم من إنسان يقف عند شاطئ الوحي مأخوذًا ببلاغته، لكنه لا يسمح لمائه أن يغسل عاداته وموازينه ومصالحه.

والقرآن لم ينزل ليكون تحفة لغوية على رفوف الإعجاب؛ بل نزل ليعيد خلق الإنسان.

مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا؟

بعد أن قررت السورة مصدر الوحي، كشفت دافعًا آخر من دوافع رفضه: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ).

الخطر ليس في أن يريد الإنسان نصيبًا من الدنيا؛ فقد أباح الله طبيباتها، وإنما الخطر أن تصبح الدنيا هي الإرادة الكبرى التي تبتلع ما سواها. أن يتحول النجاح القريب إلى القبلية التي تتجه إليها الأعمال كلها، فلا يُسأل: أحقُّ هذا أم باطل؟ بل: ماذا سأربح منه؟

قد يعمل الإنسان كثيرًا، وينظم، ويبني، ويكتب، ويتقن، وينال ثمرة سعيه في الدنيا؛ شهرةً أو مالًا أو نفوذًا. فالله لا يبخس أحدًا سنن عمله. لكن المأساة أن يصل إلى نهاية الطريق وقد استوفى أجره كله في المحطة الأولى.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ليست قيمة العمل في حجمه وحده، وإنما في الوجهة التي حملها داخله. فقد يشبه العمل الصالح من الخارج، بينما لا يصعد منه شيء؛ لأنه لم يكن يريد الله.

النية ليست إضافةً صغيرةً إلى العمل، بل هي روحه. والعمل بلا روح قد يملأ العيون، لكنه لا يملك حياةً عند الله.

إن الدنيا تدفع أجورًا سريعة: تصفيقًا، وانتشارًا، ومنصبًا، وصورةً لامعة. والآخرة تطلب من الإنسان أن يعمل أحيانًا ولا يرى الثمرة، وأن يزرع في أرض قد لا يعيش حتى يرى حصادها، وأن يثبت على الحق حين لا تمنحه الجماهير إلا العزلة.

ومن هنا يُعرف صدق العبد: هل يستمر إذا غاب التصفيق؟ وهل يبقى أمينًا إذا لم يعرف الناس اسمه؟ وهل يعمل لله إذا أخذ غيره الثناء الذي كان ينتظره؟ إن من أراد وجه الله لا يحتقر أثره لأنه صغير في أعين الناس؛ فرب خطوة لم يشهدها أحد أثقل في الميزان من ضجيج ملاء مدينة.

الْبَيِّنَةُ وَالشَّاهِدُ

ثم تقيم السورة مقابلةً بين طالب الدنيا ومن كان على بينة من ربه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

المؤمن لا يسير في ظلام الوهم، بل على بينة. قد يجهل كثيرًا من تفاصيل الطريق، لكنه يعرف الأصل الذي يقوده. وقد تضطرب حوله التأويلات، لكنه يملك نورًا يفرق به بين الاتجاهات.

ليس الإيمان قفزةً عمياء خارج العقل، بل رؤية تتعاون فيها دلائل الوحي والفطرة والتاريخ. فهذا القرآن لا يظهر منفصلاً عن موكب النبوات؛ يسبقه كتاب موسى إمامًا ورحمة، وتتصل رسالته بالأصل الذي جاء به الأنبياء جميعًا.

إن الوحي نهر واحد، وإن تنوعت المواطن التي ظهر فيها. والأنبياء لم يؤسس كل واحد منهم حقيقةً تناقض الآخر؛ بل حملوا إلى الإنسان نداءً متصلًا: أن يعرف ربه، ويعبده وحده، ويقيم حياته على العدل، ويستعد للرجوع إليه.

ثم يأتي الإنذار: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

هذه الجملة مرساة في بحر الكثرة. فالحق لا يتحول إلى باطل لأن أكثر الناس أعرضوا عنه، كما لا يتحول الباطل إلى حق لأن له جمهوراً واسعاً.

الكثرة تصف عدد السائرين، ولا تثبت سلامة الطريق.

وقد يكون المؤمن في بعض مراحل التاريخ غريباً، محاصراً، قليل الأنصار، فيأتيه الوهم بأن قلة رفاقه دليل على خطأ وجهته. لكن السورة التي ستعرض علينا نوحاً وهو يبني سفينته أمام أمة ساخرة، تمهد منذ الآن لحقيقة مؤلمة ومحررة: أن أكثر الناس قد لا يؤمنون، وأن الحق مع ذلك يبقى حقاً.

ليست الحقيقة انتخابات يفوز فيها الرأي الأعلى أصواتاً.

إنها ثابتة بمصدرها، لا بعدد المصنفين لها.

ومن هنا يخرج المؤمن من عبودية الجمهور. لا يحتقر الناس، ولا يتعالى عليهم، ولا يستغني عن نصحتهم؛ لكنه لا يجعل قبولهم شرطاً ليطمئن إلى كلام الله.

فإذا استقر في قلبه أن القرآن حق من ربه، استطاع أن يدخل قصص السورة دخول المتعلم، لا المتفرج. سيرى الأنبياء يقفون وحدهم تقريباً أمام مجتمعات كاملة، ومع ذلك لم تكن وحدتهم فراغاً؛ لأن الله كان معهم.

وهنا تنتهي التهيئة الكبرى.

لقد عرّفنا السورة بالكتاب، وكشفت لنا تقلّب الإنسان، وأرست معنى الصبر، وحررت الداعية من عبودية النتائج، وميّزت طالب الدنيا من طالب الآخرة، وثبتت أن الحق لا يُوزن بالكثرة.

والآن يمكن أن نسمع أول صوت نبوي يشق ظلمات التاريخ:

صوت نوح عليه السلام.

رجل لبث في قومه زمناً طويلاً يدعوهم، حتى صار عمر الدعوة أطول من أعمار أجيال. رجل رأى الوجوه تتبدل والعناد يبقى، ودفن من سنوات الأمل ما يكفي لانهيّار قلوب كثيرة، ثم ظل واقفاً؛ لأن الداعية قد يتعب من الطريق، لكنه ما دام يستمد يقينه من الله فلن يجعل طول الطريق حجةً على بطلان الوجهة.

ومن بعيد، في أرض لم تعرف المطر الذي يصنع الطوفان، كان أمر إلهي يستعد للنزول:

أن اصنع الفلك.

وهناك ستبدأ واحدة من أعظم حكايات اليقين؛ حين يبني المؤمن وسيلة النجاة
قبل أن يظهر في الأفق أول دليل يصدق به الناس.

الفصل الثالث

سَفِينَةُ نُوحٍ

حين يصبح الإيمان وطنًا وسط الطوفان

تدخل سورة هود إلى قصة نوح عليه السلام دون أن تحدّثنا عن طفولته، ولا عن بيئته الأولى، ولا عن اللحظة التي بدأت فيها النبوة تضيء قلبه. فالقرآن لا يكتب سيرةً زمنية، وإنما يلتقط من حياة النبي الموضع الذي يلتقي فيه الوحي بمأزق الإنسان.

وأول ما نسمعه هو صوت الإنذار: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِيمِ﴾.

قال: ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل: أخاف منكم.

وهذه الكلمة وحدها تكشف معدن النبوة.

فهو يقف أمام قوم كذبوه وسخروا منه وأطالوا عناده، ومع ذلك لم تتحول دعوته إلى خصومة شخصية. لم يصبح همه أن ينتصر لنفسه، أو أن يرى من آذوه منكسرين؛ ظل يرى العذاب القادم إليهم قبل أن يرى إساءتهم إليه.

إن الداعية قد يختلف عن الناس، لكنه لا يفقد الرحمة بهم. فإذا تحولت الدعوة في قلبه إلى رغبة في إذلال المخالف، فقد تسللت النفس إلى موضع الرسالة.

الأنبياء لا يحملون الحق كالسوط، بل يحملونه كحبل نجاة، حتى إذا رفضه الناس تألموا لرفضهم؛ لأنهم يعرفون الهاوية التي يسировون إليها.

كان نوح يرى ما لا يرونه.

هم يرون يومهم الآمن، وبيوتهم القائمة، وسماء لم تبدأ بعد في إرسال الماء. وهو يرى خلف هذا الاستقرار الظاهر يوماً أليماً يقترب. وهذه وحدة النبي في كل زمان: أن يبصر العاقبة بينما يعيش الناس تحت سطوة اللحظة.

المجتمع الغافل يطمئن إلى تكرار الأيام، فيظن أن غداً ليس إلا نسخة من الأمس. فإذا كانت الشمس قد أشرقت طويلاً، توهم أنها لا تعرف الكسوف، وإذا بقيت الحضارة أجيالاً ظن أنها لا تعرف البقاء صفة ذاتية فيها.

أما النبي فيقرأ ما وراء العادة؛ يعلم أن السنن لا تتعطل لأن الناس نسوها، وأن السقف قد يبدو ثابتاً بينما يكون آخر مسمار فيه قد بدأ بالانفلات.

ومع ذلك لم يبدأ نوح بذكر الطوفان، بل بدأ بأصل النجاة: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

فالماء لم يكن المشكلة الأولى، وإنما الشرك. والطوفان لم يكن بداية الكارثة، بل نهايتها المرئية. أما الكارثة الحقيقية فقد بدأت يوم انحرف القلب عن الله، ثم بنى حول انحرافه ثقافة ومكانة ومصلحة، حتى صار الرجوع إلى الحق تهديداً لبناء المجتمع كله.

إن الطوفانات الكبيرة تبدأ من قطرة صغيرة في الضمير.

حِينَ تُصْبِحُ الْمَكَاتَةُ حُجَّةً

لم يناقش المَلَأُ من قوم نوح حقيقة التوحيد ابتداءً، بل نظروا إلى شخص الرسول وأتباعه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

تكررت العبارة: ﴿مَا نَرَاكَ﴾، ﴿وَمَا نَرَاكَ﴾، ﴿وَمَا نَرَى﴾.

كأن الحقيقة عندهم لا تتجاوز ما تراه أعينهم، مع أن أعينهم نفسها كانت محكومةً بموازين طبقتهم ومصالحهم. لم يروا بشرية نوح جسراً يجعل الاقتداء به ممكناً، بل رأوها عيباً؛ لأنهم أرادوا للحق أن يأتي في صورة تعفيهم من الاستجابة.

﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾.

لكن ما الصورة التي كانوا ينتظرونها؟ أكانوا يريدون ملكاً لا يجوع ولا يتعب، ثم يقولون إذا جاءهم: كيف نتبع من لا يشبهنا؟

إن النفس المتعنتة لا تبحث عن دليل، بل تصنع شرطاً يستحيل معه التسليم. فإذا جاءها الحق قريباً قالت: ما نراك إلا بشراً. وإذا جاءتها الآية خارقةً قالت: هذا سحر.

لم تكن المشكلة في غياب البرهان، بل في وجود الكبر.

ثم نظروا إلى الذين آمنوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا

وهنا انكشف المعيار الطبقي الذي كانوا يزنون به الحقيقة. لم يسألوا: ماذا وجد هؤلاء في دعوة نوح؟ بل سألوا: من هؤلاء اجتماعيًا؟

حسبوا أن فقر الأتباع يطعن في صدق الرسالة؛ لأنهم تعودوا أن يربطوا القيمة بالمال، والعقل بالمكانة، والكرامة بالنسب. ولم يستطيعوا أن يتصوروا أن إنسانًا ضعيفًا في موازين الأرض قد يكون أرفع عند الله من صاحب سلطان.

إنهم لم يرفضوا التوحيد بوصفه عقيدة فحسب؛ رفضوه لأنه يعيد توزيع الكرامة.

فإذا كان الناس جميعًا عبيدًا لله، فمن أين يستمد المملأ شعورهم بالتفوق؟

وإذا كان أكرم الناس أتقاهم، فماذا تصنع الأنساب المتضخمة والأموال المتراكمة؟

وإذا وقف السيد وخادمه في صف واحد بين يدي الله، فقد سقطت هندسة المجتمع التي تمنح بعض البشر حق النظر إلى الآخرين من علي.

لذلك كان الفقراء أسرع إلى الرسالات؛ لا لأن الفقر فضيلة بذاته، بل لأنهم كانوا أقل خسارة عند سقوط الأصنام الاجتماعية. لم تكن لهم عروش يخشون أن يهدمها التوحيد، ولا امتيازات يخافون أن يسويها العدل.

أما المملأ فكانوا يشعرون أن دعوة نوح لا تطلب منهم أن ينطقوا بكلمة فحسب، بل تطلب أن يولدوا من جديد بلا الألقاب التي صنعتها الجاهلية حولهم.

(بَادِيَ الرَّأْيِ).

اتهموا المؤمنين بأنهم اتبعوا نوحًا في ظاهر الأمر وأوله، من غير روية في زعمهم. وكأن سرعة الاستجابة للحق سذاجة، وطول التردد أمامه حكمة.

لكن البصيرة قد ترى في اللحظة ما تعجز المكابرة عن رؤيته في قرون. فليس كل بطء تعقلاً، ولا كل سرعة طيشاً. قد يسمع القلب الصادق كلمة الحق فيعرفها؛ لأنها تطرق باباً بقي مفتوحاً في فطرته. وقد يطيل المتكبر النظر، لا لأنه يريد أن يفهم، بل لأنه يبحث عن مخرج من الفهم.

ثم قالوا: (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ).

وهنا اختصروا القضية كلها في منافسة على الفضل. لم يفكروا في النجاة، بل في الاعتراف بالتفوق. كانوا يقولون ضمناً: لو كانت دعوتكم حقاً، لأعطتنا مكانة أعلى فيها، ولجعلتنا أول الداخلين، ولرتب الناس داخلها بحسب طبقاتهم القديمة.

لكن الوحي لا يأتي ليبارك سَلَمَ الجاهلية، بل ليكسره.

لا يقول للمتكبر: أنت أعلى لأنك تملك أكثر.

بل يقول له: أنت عبد، وذلك الفقير عبد، وكلاكما واقفان على أرض واحدة أمام رب واحد، ولن يحمل أحد منكما إلى القبر إلا عمله.

لقد احتقروا أتباع نوح؛ لأنهم رأوا ثيابهم، ولم يروا قلوبهم. رأوا ضعف أيديهم، ولم يروا القوة التي جعلتهم يخالفون مجتمعًا كاملاً. رأوا فقرهم إلى المال، ولم يروا غناهم عن التصفيق.

وما أكثر من يبدو ضعيفًا لأنه خسر امتيازات الباطل، بينما يكون في الحقيقة قد امتلاك أعظم قوة: أن يقول «لا» حين يقول الجميع «نعم».

بَيِّنَةٌ لَا تُفَرِّضُ عَلَى الْقُلُوبِ

أجاب نوح قومه بلغة لا اضطراب فيها: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ).

لم يقل: أنا أفضل منكم بنسبي أو بمالي. أعاد الأمر كله إلى مصدره: (عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي).

فالنبوة ليست تفوقًا ذاتيًا يصنعه الإنسان، بل رحمة يؤتيها الله من يشاء. ونوح لا يدعوهم إلى شخصه، وإنما إلى النور الذي جاءه من ربه.

(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ).

الرحمة موجودة، لكنهم لم يبصروها. والبيئة قائمة، لكن بينهم وبينها حجابًا من الكبر والمصلحة. فالحق قد يكون ظاهرًا في ذاته، ثم يعمى عنه قلب لا يريد لوازمه.

ليست كل مشكلة فكرية نقصًا في المعلومات. قد تتوافر الأدلة، لكن في الداخل رغبةٌ تخشى ما سيترتب على الاعتراف بها. ومن هنا يحتاج طالب الحق إلى شجاعة أخلاقية، لا إلى ذكاء ذهني فحسب؛ إذ قد يعرف العقل الطريق، ثم تمنع النفس القدم من السير فيه.

(أَنْلِزْ مُكْمُوها وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ).

الإيمان لا يدخل القلب قسرًا؛ لأن المطلوب ليس حركة اللسان وحده، بل انقياد الضمير. يمكن أن يُكره الجسد على الوقوف، لكن لا يمكن أن يُكره القلب على اليقين.

وهذا لا يعني أن الحق يصبح تابعًا لاختيار الإنسان. تظل الحقيقة حقيقةً وإن كرهها، وتبقى العقوبة قائمةً وإن رفض تصديقها. لكنه يتحمل مسؤولية الباب الذي أغلقه من داخله.

إن الله يرسل البيئة، ويوقظ الفطرة، ويقيم الحجة، لكنه لا يحوّل الإنسان إلى حجر. فقد شاءت حكمته أن يكون الإيمان اختياريًا يترتب عليه الجزاء، وأن تكون الاستجابة فعلًا أخلاقيًا، لا انعكاسًا آليًا لا فضل فيه.

الدَّعْوَةُ الَّتِي لَا تَطْلُبُ أَجْرًا

ثم قال نوح: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

كان يمكن للملأ أن يطعنوا في نيته: لعله يريد مالاً، أو مكانةً، أو قيادةً جديدةً. فقطع نوح الطريق على هذا الظن: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

إن الكلمة التي تطلب ثمنها من الناس تبقى أسيرةً لهم. يخشى صاحبها أن يغضبوا، فيخففها؛ وأن يقطعوا عنه العطاء، فيبدل اتجاهها. أما من نقل أجره إلى الله، فقد حرر صوته من سوق المساومات.

لا يعني ذلك أن كل من أخذ أجرًا على عمل مشروع فقد إخلاصه، وإنما المعنى أن الرسالة لا تُصاغ بحسب المقابل. لا يباع الحق لمن يدفع أكثر، ولا يُحجب عن لا يملك.

وحين يكون الله هو الغاية، يستطيع صاحب الكلمة أن يقول ما يجب قوله ولو نقص بسبب ذلك نصيبه من الدنيا. أما إذا صار الجمهور هو الذي يدفع له معنويًا أو ماديًا، فقد يتحول رضاه إلى إله خفيّ يعيد صياغة خطابه.

الإخلاص ليس شعورًا ساكنًا في القلب، بل حرية. إنه يحرر الإنسان من عبودية الثناء، ومن الرعب من الذم، ومن الحاجة إلى أن يرى أثره سريعًا. يعمل لأنه مأمور، ويصدق لأنه مسؤول، ثم يترك أجره عند من لا يضيع لديه عمل.

لَنْ أَطْرِدَ الَّذِينَ آمَنُوا

ثم وصل نوح إلى الطلب الذي كان الملا يخفونه وراء اعتراضاتهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

لقد أرادوا مجلساً لا يجلس فيه الفقراء إلى جوارهم، ورسالة تمنحهم مدخلاً خاصاً يليق بمكانتهم. كأنهم يقولون: أبعد هؤلاء عنك، ثم يمكننا أن نفكر في الاستماع إليك.

لكن نوحاً رفض أن يجعل المستضعفين ثمناً لإيمان المتكبرين.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

هذه ليست مجاملةً لأتباع ضعفاء، بل إعلان لمعيار السماء. إنهم قد يكونون مجهولين في الأرض، لكنهم ﴿مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾. ومن علم أن الفقير الذي أمامه سيقف غداً بين يدي الله، لم يجرؤ أن يهينه إرضاءً لصاحب نفوذ.

إن الإيمان منح هؤلاء وطنًا أخلاقياً بعدما لفظتهم طبقات المجتمع. وفي مجلس نوح لم يعودوا «أراذل»، بل مؤمنين. نقلتهم العقيدة من هامش النظرة البشرية إلى مركز العناية الإلهية.

وهذا امتحان لكل حركة إصلاح: هل تحتفظ بالمستضعفين حين يصبح وجودهم عبئاً على صورتها أمام الكبار؟ أم تضحى بهم لتربح قبول الطبقة النافذة؟

يمكن للمشروع أن يرفع شعار العدالة، ثم يعيد داخل صفوفه بناء الطبقات ذاتها التي جاء ليهدمها. يقرب الغني وإن قلّ عطاؤه، ويهمش الفقير وإن صدق بلاؤه، ويزن الناس بما يفتحونه من أبواب الدنيا لا بما يحملونه من أمانة.

أما نوح فعرف أن طرد مؤمن واحد لإرضاء متكبر ليس خطوة سياسية ذكية، بل خيانة للرسالة.

ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

المؤمن الضعيف قد لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، لكن الله يدافع عنه. ومن ظلمه فليستعد للسؤال: من ينصره من الله؟

ما أشد هذه الآية على كل من استضعف إنساناً لأنه لا يملك عشيرة تحميه، ولا مალًا يدفع به، ولا صوتًا يبلغ المجالس! لقد نسي أن عجز المظلوم عن الوصول إلى الناس لا يعني عجز شكواه عن الصعود إلى السماء.

إن أخطر المظالم ذلك الذي يطمئن صاحبه لأن ضحيته بلا سند. وفي ميزان القرآن، قد يكون غياب السند الأرضي هو الذي يجعل نصرته الله أقرب وأشد.

لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ

واصل نوح تجريد الدعوة من كل ادعاء بشري: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

لا خزائن الله في يده، ولا الغيب ملكٌ له، ولا هو خارج عن الطبيعة البشرية. إنما هو عبد اصطفاه الله بالوحي.

هكذا تقيم النبوة توازنها البديع: رفعة الاصطفاء لا تلغي حقيقة العبودية، وبشرية الرسول لا تنقص من صدق الرسالة.

والأنبياء أعظم الناس لأنهم أكملهم عبوديةً لله، لا لأنهم شاركوه شيئاً من خصائص ربوبيته. يعلمون من الغيب ما أطلعهم الله عليه، ويقفون عند الحد الذي رسمه الوحي، فلا يملؤون مساحة الجهل بادعاء.

ثم أعاد نوح الحديث عن الذين ازدرتهم أعين الملائكة: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾.

الازدراء يبدأ من العين قبل اللسان. نظرة عابرة تُصدر حكماً كاملاً على إنسان: ثيابه متواضعة، لغته غير مصقولة، مكانته محدودة، إذن لا خير كبيراً فيه.

لكن الله لا ينظر إلى الناس بالعين التي تصنعها الطبقة. وما أخطر أن نحكم على مواطن الخلق من خلال أغلفتهم، ثم نجعل ما منحه المجتمع لهم أو منعه عنهم دليلاً على قدرهم عند الله.

قد تخطئ العين في الإنسان كله.

ترى المظهر ولا ترى الصبر الذي بناه الألم في قلبه.

ترى فقره ولا ترى عفوه.

ترى ارتباك عبارته ولا ترى صدق معناه.

ترى وحدته ولا ترى معية الله التي تحيط به.

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ).

هذه الجملة تهذب أحكامنا. نحن نرى الشواهد الظاهرة ونزنها بالعدل، لكننا لا نفتح سرائر الناس، ولا نغلق عليهم أبواب الخير؛ فالله وحده يعلم خبايا القلوب، ويعلم أي دمة كانت أصدق من خطبة، وأي عمل صغير حمل من الإخلاص ما لم تحمله أعمال ملأت العيون.

حِينَ يَتَحَوَّلُ الْجِدَالُ إِلَى هَرَبٍ

بعد أن أجاب نوح شبهاتهم، لم يجد قومه سبيلاً لمواصلة النقاش، فتحولوا من محاوراة الحجة إلى استعجال العذاب: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

عندما يعجز الإنسان عن ردّ الحقيقة، قد يطالب بتعجيل نتائجها. لا يقول: أقنعتني أو لم تقنعني، بل يقول متحدياً: هات العذاب.

وهذا ليس شجاعة؛ إنه اليأس الذي يرتدي قناع القوة.

لقد طال وجود نوح بينهم حتى أصبح صوته جزءاً من يومهم، فظنوا أن تكرار الإنذار دون نزول العذاب دليل على أن العذاب لن يأتي. لم يفهموا أن طول المهلة رحمة، لا عجز؛ وأن كل يوم مرّ كان فرصة إضافية، لا برهاناً على سقوط الوعد.

أجابهم نوح: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

لم يدّع امتلاك موعد العذاب. فالنبي يبلغ عن الله، ولا يتصرف في ملكه. وقد يحاول المخالف أن يستفز الداعية ليعد بما لم يعد الله، أو يحدد ما لم يحدده الوحي، حتى إذا لم يقع اتخذ ذلك ذريعةً للطعن في الرسالة.

لكن نوحاً بقي داخل حدود العبودية: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾.

إنه لا يحتاج إلى استعراض القوة؛ لأن القوة ليست قوته. ولا يخشى أن يعجز عن تنفيذ الوعد؛ لأنه لم ينسب تنفيذه إلى نفسه.

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).

قد تهربون من كلام النبي، لكنكم لا تخرجون من ملك الله. وقد تغلقون آذانكم، لكنكم لا تستطيعون إغلاق الطريق الذي تأتي منه المقادير. الإنسان يستطيع أن يرفض الهداية، لكنه لا يستطيع أن يمنع العقابة من الوصول إليه.

ثم قال: (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

إنها لحظة تكشف حدود الداعية. لقد بذل نوح النصح، وكرره، ونوع أساليبه، وصبر زمناً لا تكاد الأعمار تتسع لتصوره؛ ومع ذلك لم يملك مفتاح قلب واحد.

الهداية ليست صناعة بشرية.

يمكنك أن تقدم البرهان، لكنك لا تخلق البصيرة.

ويمكنك أن تطرق الباب، لكنك لا تنتزع من الداخل إرادة الفتح.

وحين يصر الإنسان على العمى بعد قيام الحجة، ويختار الغواية مرةً بعد مرة، يتركه الله لما اختاره، عقوبةً عادلة على إعراضه. فلا يُنسب إلى الله ظلم، سبحانه؛ فقد أرسل وأنذر وأمهل وفتح باب الرجوع، ولكنهم أحبوا العمى حتى صار العمى طريقهم.

وهنا تبلغ الدعوة مرحلةً شديدة القسوة على قلب نوح: مرحلة معرفة أن زمن الاستجابة قد انتهى.

فما عاد السؤال: كيف يؤمنون؟

بل: كيف يُنقذ المؤمنون؟

وهناك، في اللحظة التي أُغلق فيها باب القلوب، صدر الأمر بفتح ورشة السفينة.

لم يكن البحر قريبًا.

ولم تكن السماء تحمل في ظاهرها ما يخيف.

لكن نوحًا سيضع اللوح الأول؛ لأن المؤمن لا ينتظر أن توافق حواسه خبر الله حتى يطيعه.

سيبنى سفينةً على اليابسة، وسيعبر به قومه ساخرين، وسيظنون أن النبي الذي كان يحدثهم عن السماء قد ضلّ حتى صار يصنع مركبًا حيث لا ماء.

لكن الحقيقة كانت تسير نحوهم في صمت.

وكان كل مسمار يدقّه نوح في ألواح السفينة مسمارًا يُدقّ في نعش عالمٍ رفض أن يستيقظ.

أما المؤمنون القليلون، فقد كانوا يدخلون وطنًا جديدًا لم يكتمل بناؤه بعد.

وطناً لا تحرسه الأسوار، بل يحرسه الوعد.

وطناً اسمه: السفينة.

حين ينتهي زمن الجدل

يمتد الصبر ما دام في الأفق قلب يمكن أن يستجيب، وتظل أبواب الدعوة مفتوحة ما دام الله لم يقضِ بانتهاء المهلة. لكن لحظة جاءت بعد ذلك العمر الطويل، حملت إلى نوح عليه السلام خبراً ثقيلاً:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

(لَنْ يُؤْمِنَ).

ما أثقل هذه الكلمة على نبي قضى عمره يترقب اهتزاز قلب، أو انفتاح نافذة، أو رجوع إنسان واحد! لقد ظل يزرع زمناً مديداً، ثم جاءه الوحي بأن موسم الإنبات قد انتهى، وأن الأرض التي أبى أهلها إلا أن يملئوها بالملح لن تخرج زرعاً جديداً.

لم يكن نوح متعباً من طول الدعوة بقدر ما كان حزيناً على ضياع المدعوين. ولهذا جاءه التثبيت: (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

لا تحمل في صدرك فوق ما كُلفت به. لقد بلغت ونصحت وصبرت، ولم تكن قلة الثمرة نقصاً في أمانتك. فالقلب لا يهتدي بطول خطاب الداعية وحده، وإنما يهتدي إذا أراد صاحبه الحق وأذن الله له بالنور.

تأتي لحظة يحتاج فيها المصلح إلى أن يفرّق بين فشل الرسالة ورفض الناس لها. فقد تكون الرسالة حقاً، والبلاغ صادقاً، ثم يختار المخاطبون الإعراض. وليس من العدل أن يجعل حامل الحق من عنادهم حكماً على قيمة ما يحمل. إن نوحاً لم يخفق.

لقد نجح في أن يظل نوحاً طوال ذلك الزمن.

فالنجاح في ميزان الوحي ليس عدد الذين صفقوا، بل مقدار ما بقي العبد وفياً لما أمره الله به. وربما عاش المصلح ومات ولم يرَ إلا قليلاً من الثمرة؛ ثم امتد أثر كلمته بعده، أو كان ثباته نفسه هو الرسالة التي أراد الله أن تبقى.

حين أخبر الله نوحاً أن أحداً جديداً لن يؤمن، لم يعد استمرار الجدل حكمة. فقد انتقلت الرسالة من مرحلة الإنذار إلى مرحلة الإنقاذ.

وهنا صدر الأمر العجيب: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا

أُمر نوح أن يصنع الفلك.

لم يُنزل الله عليه سفينةً مكتملةً من السماء، ولم يشقّ له طريق النجاة دون عمل؛ بل أمره أن يصنع.

فالوعد الإلهي لا يلغي مسؤولية الإنسان. واليقين لا يعني انتظار النجاة بلا أسباب. لقد كان نوح مؤمناً بأن الله سينجيه، ومع ذلك جمع الخشب، وهياً الأدوات، ووضع الألواح، وثبّت المسامير.

هناك فهم قاصر للتوكل يريد من السماء أن تفعل كل شيء بينما تبقى اليد ساكنة. لكن القرآن يرينا نبياً يبني وسيلة النجاة بجهده، تحت هداية الوحي وحفظ الله.

اصنع؛ لأن لك دوراً.

وبأعيننا؛ لأنك لست وحدك.

وبوحننا؛ لأن الجهد البشري يحتاج إلى هداية تضبط اتجاهه.

تجتمع في هذه الكلمات الثلاث هندسة العمل المؤمن: حركة من الإنسان، ورعاية من الله، وهداية من الوحي.

فإذا تحرك الإنسان بلا وحي، قد يبني سفينةً متقنة تسير إلى الجهة الخطأ. وإذا ادعى التوكل بلا حركة، بقي على اليابسة حتى يدركه الماء. أما الإيمان الصحيح فيأخذ السبب بجديّة، دون أن يمنحه مقام المسبب.

(بِأَعْيُنِنَا) كما يليق بجلال الله، من غير تشبيه ولا تمثيل؛ فهو سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). والمعنى يفيض بالحفظ والرعاية: اصنعها وأنت محاط بعنايتنا، مرئيّ بعلمنا، محفوظٌ بتدبيرنا.

كان نوح في ظاهر المشهد رجلاً قليل الأتباع، يبني سفينةً في أرض لا يترقب أهلها طوفاناً. لكنه في حقيقة الأمر كان يعمل تحت رعاية رب السماوات والأرض. وكم يخطئ الناس حين يقيسون قوة الإنسان بعدد الواقفين حوله، وينسون من يقف معه فوق كل قوة.

قد تكون وحيداً في أعين الخلق، وأنت لست وحيداً عند الله.

وقد يسخر منك مجتمع كامل، بينما يحمل عملك من الرعاية ما لا تحمله قصورهم.

وقد تبدو أدواتك قليلة، لكن البركة لا تُقاس بحجم الأداة، بل بمن وضع فيها أثرها.

ثم جاء الأمر الذي أغلق باب الشفاعة في الظالمين: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

إن الرحمة لا تعني تعطيل العدل. وقد أمهلوا حتى استنفدوا فرص الرجوع، ثم أصبح إنقاذهم تثبيتًا للظلم لا رحمةً بالمظلومين. وحين يصير وجود الفساد تهديدًا لمعنى الحياة نفسها، يكون إزالته وجهًا من وجوه الرحمة بالعالم.

كان نوح سيشاهد قومًا عاش بينهم أعمارًا يواجهون نهايتهم. وربما عرف أسماءهم، وبيوتهم، وملامح آبائهم وأبنائهم. لذلك احتاج إلى هذا الحسم الإلهي: لا تخاطبني فيهم.

فالنبي بشر رحيم، وقد تدفعه شففته إلى تمنى تأخير ما استحقوه، لكن الله أعلم بمن أغلق قلبه، وأعلم بالحد الذي تتحول بعده المهلة إلى زيادة في الطغيان.

السَّفِينَةُ الَّتِي سَخَّرَ مِنْهَا الْعَالَمُ

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ).

تجعلنا صيغة المضارع كأننا نرى المشهد يتكرر: يصنع، ويمرون، ويسخرون. يومًا بعد يوم، ولو حًا بعد لوح.

لم تكن السخرية حادثةً عابرة، بل مناخًا أحاط بعملية البناء كلها. وكلما ارتفعت السفينة ارتفع معها ضحكهم؛ لأن شكلها في اليابسة كان، وفق معرفتهم القاصرة، برهانًا على عبث صانعها.

كانوا يرون مكان السفينة ولا يرون الزمن القادم.

يرون اليابسة ولا يرون الماء الذي في علم الله.

يرون نوحًا ممسكًا بأدواته، ولا يرون الوحي الذي يقود يديه.

وهذه هي المسافة بين الإيمان والسخرية: المؤمن يتعامل مع الحقيقة قبل أن تتحول إلى مشهد، والساخر لا يصدق إلا ما تحيط به حواسه في اللحظة الراهنة.

من السهل أن تؤمن بالطوفان بعد ارتفاع الماء، لكن الإيمان الذي ينجي هو الذي يدفعك إلى بناء السفينة قبل أن تتشكل أول غيمة.

كان كل عابر يجد مادةً جاهزةً للتهكم: النبي الذي دعا طويلًا صار نجارًا، والرجل الذي أُنذر بالعذاب يبني مركبًا بعيدًا عن البحر. وربما كان بعضهم يأتي خصيصًا ليرى هذا «الجنون» الجديد، ثم يعود إلى مجلسه حاملاً قصةً يضحك بها القوم.

لكن نوحًا لم يضع المطرقة جانبًا ليدافع عن صورته.

لم يتحول مشروع النجاة إلى سجل يومي مع الساخرين. كان لديه عمل يجب إنجازه، وموعد لا يعرف متى يحين. ومن عرف أن الماء قادم لا يستهلك وقته في إقناع كل عابر بسبب وجود السفينة؛ يمضي في البناء، لأن اكتمالها أبلغ من ألف جدال.

هناك سخرية يراد بها تعطيلك لا محاورتك. فإذا تركت عملك لترد على كل صوت، حققت للسخرية غايتها وإن انتصرت في الكلمات.

إن بعض الردود لا تُكتب بالحروف، بل تُبنى بالألواح.

وبعض الحقائق لا يثبتها الجدل، بل يثبتها وصول السفينة إلى الشاطئ الآخر.

أجابهم نوح: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿١٠٦﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

ليست سخرية نوح عبثاً أو تشفياً؛ إنها كشف لانقلاب الموازين. أنتم تضحكون لأنكم تقفون على أرض جافة، ونحن نعلم أن موضع ضحككم نفسه سيغمره الماء. أنتم ترون السفينة فضيحة، وستعلمون أنها النجاة. وترون كثرتم قوة، وستعلمون أنها لا تصنع أرضاً فوق الطوفان.

كانت سخريتهم مبنيةً على الظاهر القريب، وكان رد نوح مبنياً على العاقبة. والعاقبة هي الموضع الذي تُختبر فيه صحة الأحكام.

كم من فكرة ضحك منها عصرها ثم أصبحت قارب نجاته، وكم من حقير في أعين الناس كشف الزمن أنه كان أبصر منهم جميعاً. ليست السخرية دليلاً، مهما ارتفع صوتها، ولا يصبح الحق سخيلاً لأن جماعةً اتفقت على الضحك منه.

الجماعة قد تتقاسم العمى كما تتقاسم الرؤية.

وقد يمنح الإنسان نفسه شجاعةً زائفةً حين يضحك مع الآخرين؛ لأنه يشعر أن كثرتهم تحميه من احتمال الخطأ. لكن الطوفان لا يسأل عن عدد الضاحكين، بل عن موضع أقدامهم.

فَارَ التَّنُّورُ

ظل نوح يبني، حتى جاءت اللحظة التي انتقل فيها الوعد من الغيب إلى المشهد: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾.

لم يقل: جاء المطر فحسب؛ لأن الماء لم يكن حادثةً طبيعيةً خارجةً عن المعنى، بل جنديًا تحرك بأمر الله. الكون الذي اعتاد الناس سكونه تبدلت وظيفته في لحظة: السماء التي كانت سقفاً صارت ترسل الماء، والأرض التي كانت مستقرًا صارت تفجر عيونها.

وفار التنور؛ وظهر الوعد من موضع لم ينتظره الناس.

كأن الآية تعلمنا أن بدايات التحول قد تخرج من الأماكن التي حسبناها أبعد ما تكون عنه. فحين يأتي أمر الله لا تبقى الأشياء أسيرة وظائفها المألوفة؛ النار التي يوقد عندها التنور تصبح علامةً على اندفاع الماء.

وهكذا تتصدع خرائط الحساب البشري. الإنسان يحسب الإمكانيات انطلاقاً مما اعتاده، أما قدرة الله فلا يحدها مألوفنا.

عندئذ جاء أمر الحمل. أزواج من الأحياء، والأهل الذين كُتبت لهم النجاة، والمؤمنون.

(وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ).

بعد ذلك العمر الطويل: قليل.

لكن هذا القليل كان أثقل من أمة؛ لأنه حمل بذرة الحياة التالية.

ليست القلة دائماً ضعفاً. قد تكون هي الجزء الذي اختاره الله ليعبر به التاريخ من عالم هالك إلى عالم جديد. ورب مجموعة صغيرة تحمل في صدورها مستقبلاً لا يراه الذين ملؤوا الحاضر ضجيجاً.

السفينة لم تُبْنَ للكثرة، بل للحق.

ولو جُعل عدد الأتباع مقياساً لصدق نوح لقال الناس إنه لم ينجح. لكن القرآن يجعل هؤلاء القليلين ورثة الأرض بعد الطوفان، ويجعل الساخرين الكثيرين عبرةً تُتلى.

إن ميزان الله لا يعدّ الرؤوس فقط، بل يزن القلوب.

بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا

(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

بدأت الرحلة باسم الله.

لم يقل نوح: اركبوا، فالسفينة متينة، والخشب محكم، والصنعة مجرّبة. كانت السفينة سبباً، أما جريانها ورسوّها فبالله.

(بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا).

من البداية إلى النهاية، من حركة الانطلاق إلى سكينه الوصول، الأمر كله بالله. وهذا هو التوكل في أجمل صورته: أن تُحكم السفينة بيدك، ثم لا تتكل عليها بقلبك.

فكم من سفينة متينة غرقت، وكم من سبب بدا ضعيفاً حمل الله به نجاهً عظيمة. ليست الدعوة إلى إهمال الإتقان، بل إلى تطهير القلب من الغرور بالإتقان.

اعمل كأنك مسؤول عن كل لوح، وتوكل كأن الألواح كلها لا تملك أن تحمل قطرةً إلا بإذن الله.

واللافت أن نوحاً قال في هذه اللحظة المهيبة: (إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

في قلب مشهد العذاب يذكر المغفرة والرحمة. فالطوفان لم يبلغ حقيقة الرحمة؛ بل كانت السفينة نفسها أثراً منها. وكل مؤمن ركبها كان شاهداً على أن الله فتح باب النجاة قبل نزول الماء.

لم يكن الهلاك لأن الرحمة قليلة، بل لأن القوم رفضوا طريقها.

ظل نوح يدعوهم زمناً، ثم بنى السفينة أمام أعينهم، وكان وجودها إنذاراً مجسماً. رأوا باب الرحمة يُصنع لوحاً بعد لوح، واختاروا أن يحولوه إلى مادة للسخرية.

وما أقسى أن يقف الإنسان أمام باب النجاة، ثم يهلك لأنه استكبر عن الدخول.

مَوْجٌ كَالْجِبَالِ

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ).

بدأت السفينة تجري، واختفت اليابسة التي وثق بها الناس. ارتفع الماء حتى صار الموج كالجبال، وفقدت الأشياء أسماءها القديمة: لم يعد الطريق طريقاً، ولا البيت بيتاً، ولا الساحة ساحةً. صار العالم كله ماءً متحركاً.

قبل قليل كانوا يسخرون من سفينة على البر، والآن لا شيء في المشهد يملك معنى سوى السفينة.

هكذا يعيد أمر الله ترتيب القيم في لحظة. ما كان موضع سخرية يصبح أمنية، وما كان موضع ثقة يختفي تحت الماء. الأموال التي جُمعت، والمنازل التي شُيّدت، والمجالس التي ضجّت بالتهكم؛ لم تستطع أن تمنح أصحابها مساحةً جافة يقفون عليها.

وحين تتغير موازين الواقع يظهر الفرق بين ما كان أصلاً وما كان زينة.

السفينة لم تكن أجمل ممتلكاتهم، لكنها كانت الشيء الوحيد الذي نفع.

والإيمان قد لا يمنح صاحبه في الدنيا المظهر الأكثر بريقاً، لكنه يمنحه عند انهيار المظاهر أرضاً لا تغرق.

ومع ذلك، في قلب الموج الذي يشبه الجبال، لم يكن قلب نوح منشغلاً بنفسه وحدها. لقد رأى ابنه:

(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ).

(يَا بُنَيَّ).

خرج النداء من قلب الأب، لا من مقام الخصومة. لم يقل: يا كافر، ولا يا عاصي. ناداه بالبنوة في اللحظة الأخيرة، وكأن كل الحنان الذي عاش في قلبه اجتمع في هذا التصغير الرقيق.

كان الابن في معزل. بعيدًا عن السفينة، وبعيدًا عن أبيه، وبعيدًا عن المؤمنين. وربما ظن أن انعزاله يمنحه فرصة خاصة للنجاة، لكنه كان في الحقيقة يعزل نفسه عن المكان الوحيد الذي كتب الله فيه الحياة.

ليست كل عزلة نجاة.

قد يعتزل الإنسان جماعة الحق ظنًا أنه أكثر استقلالًا، فإذا به ينفصل عن الحبل الذي كان يمكن أن يحمله.

قال نوح: (ارْكَبْ مَعَنَا).

لم يقل: تعال إليّ وحدي؛ فالسفينة ليست ملك الأب، وإنما وطن المؤمنين. والنجاة ليست لأنك ابني، بل لأنك تركب مع أهل الإيمان.

كان أمام الابن وقت يكفي لخطوة واحدة: أن يترك موضعه ويأتي.

أحياناً تختصر النجاة كلها في قرار يتخذه الإنسان قبل أن تُغلق المسافة. لكن
الكبر يجعل الخطوة القصيرة أثقل من جبل؛ لأنه يطالب صاحبه أن يعترف
بأن الذين سخر منهم كانوا على حق.

سَاوِي إِلَى جَبَلٍ

جاء جواب الابن: (قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَغْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ).

كان يرى الماء، لكنه لم يرَ الأمر.

ظن أن المشكلة ارتفاع الموج، فبحث عن مكان أعلى. ولو أدرك أن المشكلة
هي مواجهة حكم الله، لعلم أن الارتفاع المكاني لا يصنع نجاةً أخلاقية.

(سَاوِي إِلَى جَبَلٍ).

هذه جملة الإنسان الذي يثق بخبرته أكثر من الوحي. لم يقل: لا يوجد طوفان؛
فقد صار الماء أمام عينيه. لكنه ظل يفسر الحدث داخل منطقته القديم: كل ماء
له مستوى، وكل جبل أعلى من الماء، إذن فالجبل يحميني.

كانت معادلته صحيحةً في الأيام العادية، لكنها سقطت حين جاء أمر الله.

ليس العقل في أن تستخدم القواعد فقط، بل في أن تعرف حدودها. فالأسباب
تعمل بإذن الله، ولا تتحول إلى حصون مستقلة عن إرادته.

كم من إنسان يقول بطريقته: ساوي إلى جبل!

هذا مالي يعصمني.

هذه مكانتي تعصمني.

هذا حزبي يعصمني.

هذا النسب يعصمني.

هذه الدولة القوية تعصمني.

هذا الطبيب يعصمني.

هذه الجدران تعصمني.

ولا يفهم أن المال والسلطة والطب والبيوت أسباب نافعة في مواضعها، لكنها لا تعصي الله لتطيع صاحبها، ولا تخرج من ملكه لكي تمنحه ملجأً منه.

أجابه نوح: (قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ).

لم يقل: لا عاصم من الماء، بل: (مِنْ أَمْرِ اللَّهِ). أعاد تعريف المشهد لابنه. أنت لا تواجه ظاهرةً تستطيع التغلب عليها بحسن اختيار المكان؛ أنت أمام أمر لا ينجو منه إلا من أدركته الرحمة.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ).

فالنجاة ليست بطولة شخصية، بل رحمة. وحتى ركوب السفينة لم يكن ثمنًا يشتري به المؤمنون حقًا على الله، وإنما كان استجابةً جعلها الله طريقًا إلى رحمته.

لكن الابن كان لا يزال ينظر إلى الجبل.

وبين النداء والإجابة، وبين قلب الأب وحساب الابن، جاءت العبارة القاطعة: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

ما أسرع النهاية في التعبير!

موجة واحدة دخلت بينهما، فقطعت الصوت، وحجبت الوجه، وأنهت كل إمكان للرجوع.

لم تقل الآية إن حوارًا طويلًا دار، أو إن الابن بلغ الجبل ثم خذله. حال الموج بينهما قبل أن يكتمل الحلم. فقد كانت المشكلة منذ البداية أنه اختار غير السفينة.

كانت بينه وبين النجاة مسافة قصيرة في المكان، لكنها بعيدة في القلب. وربما كان يستطيع أن يبلغ أباه بخطوات، بينما لم يستطع أن يعبر من ثقته بنفسه إلى الثقة بوعد الله.

وهكذا صار من المغرقين.

لم ينفعه أنه ابن نبي.

ولم تحمله دموع أبيه فوق الماء.

ولم تمنحه القرابة استثناءً من السنّة.

فالانتساب إلى الصالحين لا يغني عن اتخاذ طريق الصلاح، والقرب من أهل الإيمان لا يساوي الإيمان. قد يعيش الإنسان داخل بيت النبوة، ويسمع صوت الحق من أنقى فم، ثم يختار جبله الخاص.

إن الهداية ليست ميراثاً ينتقل في الدم.

يمكن للأب أن يمنح ابنه الاسم والبيت والمال، لكنه لا يستطيع أن يضع اليقين في قلبه. يرشد ويدعو ويحب ويبيكي، ثم يقف عند حدود العبودية؛ فلكل نفس باب لا يفتحه بعد الله إلا اختيارها.

ولذلك تحمل قصة الابن عزاءً موجعاً لكل من بذل الهداية لمن يحب ثم لم يملك له قلبه. ليس كل رفض دليلاً على تقصير الداعي؛ فهذا نوح نبي الله، ومع ذلك لم يستطع إنقاذ ابنه حين اختار الابن موقعاً خارج السفينة.

لكنها تحمل تحذيراً أشد لمن اتكل على صلاح أسرته أو تاريخ جماعته: لن تُسأل عمّن كان أبوك فقط، بل أين كنت أنت حين جاء النداء؟

هل ركبت؟

أم قلت: لي جبل آخر؟

يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ

بعد أن بلغ الطوفان غايته، جاء الأمر الإلهي في آية تمتلئ جلالاً: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

كل شيء يتحرك بأمر.

الأرض تبتلع.

والسما تطلع.

والماء يغيض.

والسفينة تستوي.

والأمر يُقضى.

عبارات قصيرة، لكنها تحمل انطفاء عاصفة ملأت العالم. ما بدا للإنسان قوةً جامحةً لا يمكن إيقافها، توقف بكلمات. فالذي أطلق الماء قادر على أن يجمعه، والذي أذن للموج أن يرتفع حدّد له اللحظة التي ينخفض فيها.

إن الفوضى في أعيننا قد تكون نظامًا دقيقًا في تقدير الله.

لم تنزل قطرة زائدة عن الأمر، ولم تبقى موجة بعد انتهاء وظيفتها. فالكون لا يتمرّد على ربه، وإن بدا للإنسان مرعبًا في حركته.

(وَقُضِيَ الْأَمْرُ).

كم تحمل هذه الكلمات من نهايات! انتهى الاستهزاء، وانتهت المهلة، وانتهى العالم الذي عرفه نوح طويلاً. بيوت وطرقات وذكريات ووجوه، أصبحت تحت الماء.

لكن قضاء الأمر لم يكن نهاية الحياة، بل نهاية صورة فاسدة منها. وعلى الجودي استقرت السفينة، تحمل داخلها إمكان بداية جديدة.

بعد الطوفان لا تعود السفينة وسيلة نقل؛ تصبح رحماً يخرج منه العالم مرة أخرى.

والذين كانوا أقلية محاصرة صاروا الآن حملة المستقبل.

سُؤال الأب المَكْلُوم

سكن الماء، لكن قلب نوح لم يسكن بعد. لقد بقيت فيه كلمة الله السابقة بشأن أهله، وبقيت صورة الابن حين حال الموج بينهما: (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ).

لم يعترض نوح على حكم الله، ولم يتهم الوعد؛ بل بدأ بتأكيد: (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ).

لكنه سأل من موضع الألم والفهم البشري: إن ابني من أهلي، وقد وعدتني بنجاة أهلي.

هذا دعاء نبي، لكنه أيضاً أنين أب.

وفيه نتعلم أن الحزن لا يناقض الإيمان. يمكن للعبد أن يسأل ربه عما أشكل عليه، ما دام يسأل بأدب العبودية، لا بكبرياء المحاكمة. فنوح لم يضع الله موضع المتهم، وإنما وضع فهمه هو أمام الحكمة الإلهية.

جاءه الجواب: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين تعلق بهم وعد النجاة؛ فقد قطعت العقيدة ما لم يستطع النسب أن يصله. كان ابنه من أهله دمًا، لكنه خرج عن أهل الإيمان اختيارًا.

وهنا يرسم القرآن مفهومًا جديدًا للأسرة: ليست رابطة الجسد وحدها كافية لصناعة المصير المشترك. فالعقيدة لا تلغي حقوق القرابة ولا مشاعرهما، لكنها تقرر أن النجاة لا تُمنح بالنسب.

إن الكرامة في القرآن مسؤولية فردية. لا يرفعك اسم أبيك إذا أسقطك عملك، ولا يخفضك تواضع أسرتك إذا رفعك إيمانك.

ثم جاء التأديب الرحيم: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

فالعاطفة، مهما كانت طاهرةً وصادقة، لا تصبح مصدرًا للحكم على الله. نحن نرى جزءًا من الحكاية، ونحب من داخل معرفتنا المحدودة، وقد نتمنى شيئًا لا نحيط بحقيقته. أما الله فيعلم السرائر والمآلات، ويحكم بعلم لا يخالطه هوى ولا يعتريه نقص.

إن التسليم لا يعني أن القلب لا يتألم، بل يعني ألا يجعل ألمه أعلى من علم الله.

فكم من مرة قال الإنسان في نفسه: لماذا وقع هذا؟ ولماذا لم يُستجب لي؟ ولماذا نجا فلان ولم ينجُ فلان؟ وهو لا يملك إلا طرفاً صغيراً من الصورة، ثم يريد أن يحاكم به المشهد كله.

الإيمان يعلمنا تواضع المعرفة: أن نقف عند حدود ما نعلم، ونرد ما غاب عنا إلى الحكيم الخبير.

أسرع نوح إلى التوبة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

لم يدافع عن سؤاله، ولم يقل إن عاطفة الأبوة تعذره. حين ظهر له حدّ الله رجع. وهذه علامة الصفاء: أن تكون سرعة العودة إلى الحق أكبر من رغبتك في حماية صورتك.

النفوس المتكبرة تحوّل الخطأ الصغير إلى خطيئة ممتدة؛ لأنها ترفض الاعتراف. أما الأنبياء والصالحون، فتعظم مكانتهم لأنهم إذا بان لهم الصواب سجدت نفوسهم له.

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

بعد عمر من الدعوة، وصبر على أذى قومه، وبناء السفينة، ونجاة المؤمنين، لا يرى نوح لنفسه غنى عن المغفرة لحظة واحدة.

فالعامل الصالح لا يجعل العبد مستغنياً عن رحمة الله، بل يجعله أعرف بحاجته إليها. وكلما ازداد قرباً، رأى عظمة الرب أوضح، فرأى نقص نفسه أوضح.

اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا

انتهت الرحلة بنداء يحمل السكينة بعد هدير الماء: (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ).

اهبط؛ فقد انتهى الطوفان.

لكن الأرض التي سيهبط إليها ليست الأرض التي غادرها. لقد تبدل العالم، وخلف الماء فراغاً هائلاً، وفي ذلك الفراغ ستبدأ مسؤولية جديدة.

(بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ).

السلام ليس مجرد غياب الموج، بل حضور العناية. والبركة ليست كثرة الأشياء فحسب، بل أن يضع الله في القليل قدرةً على أن ينمو ويتسع ويتجاوز حجمه.

خرج من السفينة قوم قليلون، لكن فيهم بذور أمم. وهكذا تكون البركة: مستقبل واسع مخبوء في جماعة صغيرة أطاعت الله حين عصاه الأكثرون.

غير أن الآية لا تسمح للتجربة أن تتحول إلى وهم بأن الشر انتهى إلى الأبد: (وَأُمَمٌ سُمِّتَتْ لَهُمْ ثَمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ).

فالتوفان أزال جيلاً من الظالمين، لكنه لم يقتلع قابلية الظلم من النفس البشرية. ستولد أمم جديدة، وسيعود الامتحان، وسيتكرر الاختيار. فالشر لا يهزم مرةً واحدة خارج الإنسان؛ ينبغي أن يهزم في كل قلب وكل جيل.

ليس أبناء الناجين ناجين بالوراثة. قد ينزل قوم من سفينة بناها الإيمان، ثم يبنون بعد أجيال أصناماً جديدة. ولذلك لا يكفي أن نحفظ بذكریات الصالحين؛ يجب أن نحمل المعنى الذي أنجاهم.

قد تتحول السفينة نفسها، إن فقد الناس رسالتها، إلى أثرٍ تاريخي يفاخرون به بينما يعيشون ضد الإيمان الذي بناها.

مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ

تختتم القصة بخطاب إلى رسول الله ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

لم تكن قصة نوح تُروى للنبي ﷺ كي يعرف كيف وقع الطوفان فقط؛ بل لتنبيه قلبه وهو يواجه سخريةً تشبه سخرية قوم نوح، وتكذيباً يحمل الروح القديمة نفسها.

﴿فَاصْبِرْ﴾.

هذه هي الثمرة التي خرجت بها القصة من التاريخ إلى القلب.

اصبر، فقد دعا نوح طويلاً ولم تجعل قلة المستجيبين دعوته باطلاً.

اصبر، فقد سخرُوا من السفينة ثم صارت سخريتهم جزءًا من قصة هلاكهم.
اصبر، فقد يبدو المؤمنون قليلين، لكنهم يحملون في صدورهم بذرة العالم
الآتي.

اصبر، فالموج لا يبقى مرتفعًا إلى الأبد.

اصبر، لأن السفينة التي تُبنى بوحى الله لا يتركها الله في منتصف البحر.
ثم جاءت القاعدة الأخيرة: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ليست كل مرحلة لهم، ولا كل يوم، ولا كل مشهد قريب. قد تكون السخرية
لغيرهم، والسلطة لغيرهم، والكثرة لغيرهم، لكن العاقبة لهم.
وهذه الكلمة لا تعد المؤمن بطريق بلا ألم؛ فنوح فقد ابنه، وعاش وحشة
التكذيب، وشاهد عالمًا كاملاً يغرق. لكنها تعده بأن الألم لن يكون الكاتب
الأخير للقصة.

إن العاقبة ليست لمن يعلو موجُه، بل لمن تستقر سفينته.

وليست لمن يمتلك الجبل، بل لمن تدركه الرحمة.

وليست لمن يضحك أولاً، بل لمن ينجو أخيرًا.

هكذا تعلمنا سفينة نوح أن الإيمان قد يبدأ فكرةً غريبةً في قلب رجل واحد، ثم يتحول إلى ألواح تُبنى وسط السخرية، ثم يصبح وطنًا يحمل الحياة حين يفقد العالم كله أرضه.

فإذا رأيت الباطل موجًا كالجبال، فلا تسأل فقط: ما ارتفاع الموج؟

اسأل: أين السفينة؟

وإذا وجدت السفينة، فلا تتأخر عنها لأن الواقفين خارجها أكثر عددًا، أو لأن جبلًا يلوح لك أكثر صلابةً منها.

فكم من جبل غرق.

وكم من سفينة بدت ضعيفة، ثم حملت فوق ظهرها مستقبل الإنسان.

الفصل الرابع

الابن الذي غلبه الجبل

مأساة القرابة حين تنفصل عن العقيدة

ليست مأساة ابن نوح أنه لم يجد السفينة، فقد كانت قريبةً منه، وكان صوت أبيه يبلغه من فوق الماء. وليست مأساته أنه جهل وجود الخطر؛ فالطوفان كان يتشكل أمام عينيه، والموج بدأ يبتلع حدود العالم القديم.

كانت مأساته أعمق من ذلك: لقد رأى الخطر، لكنه أخطأ في تعريف النجاة.

قال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

فأجاب: ﴿سَأُوتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾.

بين الجملتين مسافتان: مسافة بين السفينة والجبل، ومسافة أعمق بين الوحي والحساب البشري المنفصل عنه.

كان نوح يدعوّه إلى «معنا»، وكان الابن يختار «سأوي». الأول يرى النجاة في الانضمام إلى أهل الإيمان، والثاني يراها في قدرته الفردية على تدبير مخرج خاص.

إنها المواجهة بين العبودية التي تستجيب، والأنا التي تصرّ على أن تنجو بطريقتها.

حِينَ يُسِيءُ الْإِنْسَانُ تَغْرِيفَ الْخَطَرِ

رأى الابن ماءً، فبحث عن مرتفع.

وهذا التفكير، في حدود الظاهرة الطبيعية، يبدو معقولاً. حين يرتفع الماء يصعد الإنسان إلى مكان أعلى. لكن نوحاً صحح له طبيعة الموقف: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

المسألة ليست ماءً في مواجهة جبل، بل أمر الله في مواجهة إنسان. والماء ليس إلا أداةً من أدوات ذلك الأمر. ولو تعلق الابن بالسحاب، أو صعد إلى قمة لا تبلغها الطيور، لأدركه ما كُتب؛ لأنه لم يكن خارجاً من مستوى منخفض إلى مستوى مرتفع، وإنما كان محتاجاً إلى الخروج من الكفر إلى الإيمان.

وهكذا يضل الإنسان حين يعالج مظاهر أزمتة ويغفل عن أصلها.

يرى اضطراب المجتمع فيظن أن المشكلة نقص المال وحده، مع أن المال إذا دخل إلى منظومة فاسدة قد يزيد قدرتها على الفساد.

ويرى انهيار العلاقات فيظن أن المشكلة غياب وسائل التواصل، مع أن كثرة الوسائل لا تصنع قلباً وفتياً.

ويرى القلق فيطلب المزيد من السيطرة على الأشياء، مع أن قلقه قد يكون مولوداً من تعلقه بما لا يستطيع السيطرة عليه.

ويرى خواء حياته، فيكدّس حوله الممتلكات، كأن الفراغ في البيت لا في الروح.

إن حسن العلاج يبدأ من حسن تشخيص الداء. وقد أخطأ ابن نوح لأنه رأى الماء ولم يرَ القطيعة مع الله. فاختار علاجاً يناسب الظاهر، بينما كان الهلاك يتجه إليه من العمق.

ما أكثر الجبال التي نبنيتها لمواجهة طوفانٍ لا تفهمه أرواحنا!

نزيد ارتفاع الجدران، بينما يأتي الخطر من داخل القلب.

نضاعف وسائل الحماية، بينما نبتعد عن الحامي.

نمتلك أسباباً أكثر، لكننا نفقد المعنى الذي يجعلها نافعة.

الْجَبَلُ: وَثْنُ الْأَسْبَابِ

لم يكن الجبل شراً في ذاته. الجبال من آيات الله، وقد جعل فيها منافع وحصوناً وأوتاداً للأرض. لكن السبب النافع يتحول إلى وثن حين يمنحه الإنسان في قلبه استقلالاً عن إرادة الله.

كان خطأ الابن أنه لم يقل: سأصعد الجبل آخذًا بسبب أذن الله فيه، بل قال: (يَعَصْمُنِي). نسب العصمة إلى الجبل في اللحظة التي أعلن فيها الوحي أن العصمة في الرحمة.

وهنا يتسلل الشرك الخفي إلى تصور الإنسان للأسباب. قد لا يسجد لها، لكنه يمنحها ثقته المطلقة، ويعلق بها أمنه، ويرى زوالها مساويًا لزوال إمكان النجاة.

حين يكون المال في يدك فهو أداة، وحين يصبح أمانك كله معلقًا به يصير جبلاً.

وحين تكون الوظيفة مجالًا للسعي فهي سبب، وحين تظن أن فقدانها يعني أن خزائن الله أُغلقت تصبح جبلاً.

وحين يكون الطبيب بابًا للعلاج فهو رحمة، وحين يغيب عن قلبك رب الطبيب والدواء يتحول السبب إلى حجاب.

وحين تكون الجماعة عونًا على الحق فهي نعمة، وحين تظن أنها تعصمك وإن خالفت الحق تصبح جبلاً.

ليس المطلوب تحطيم الأسباب، بل إنزالها من مقام الربوبية إلى مقام الخدمة. نستعملها ولا نعبدها، ونتقنها ولا نتكل عليها، ونشكرها بوصفها نعمًا من الله لا بدائل عن الله.

لقد بنى نوح السفينة، وهي سبب كما أن الجبل سبب؛ فلماذا نجّت السفينة ولم ينجُ الجبل؟

لأن السفينة بُنيت بأمر الله، والجبل اختير في مواجهة أمر الله.

ليست المسألة قوة السبب المادية وحدها، بل موقعه من الطاعة. قد يكون الخشب أضعف من الصخر، لكن لوحًا تحمله الطاعة أقوى من جبل يسكنه العصيان.

السفينة لم تنجُ لأنها أكثر ارتفاعًا من الجبل، بل لأنها كانت في جهة الأمر. وهذه قاعدة تمتد في الحياة كلها: ليس كل ما يبدو قويًا قادرًا على الحماية، وليس كل ما يبدو هشًا عاجزًا عن حملك. قد يجعل الله نجاتك في كلمة صدق تكلفك الكثير، ويجعل هلاكك في صفقة تبدو محكمة. وقد يحفظك بتنازل عن مكسب، ويتركك تسقط بسبب انتصار ظننته حصنًا.

إن الأشياء لا تؤدي وظائفها بعيدًا عن الله.

النار تحرق، لكنها لم تحرق إبراهيم حين قيل لها: كوني بردًا وسلامًا.

والبحر يُغرق، لكنه صار طريقًا لموسى حين ضُرب بالعصا.

والجبل يحمي عادةً من الماء، لكنه لم يستطع أن يمنح ابن نوح موضع قدم.

فلا تسأل عن قوة الشيء وحدها؛ اسأل عن موقعك من أمر الله وأنت تستخدمه.

الابْنُ الَّذِي سَمِعَ أَبَاهُ وَلَمْ يَسْمَعْ الْحَقَّ

عاش ابن نوح قريباً من نبي. سمع دعوته، ورأى صبره، وشاهد السفينة ترتفع أمام عينيه. لم يكن بعيداً عن مصادر الهداية، لكنه كان بعيداً عن الاستجابة.

وهنا تكشف القصة وهماً خطيراً: أن القرب من الصالحين يساوي الصلاح.

قد ينشأ الإنسان في بيتٍ يعرف القرآن، لكنه لا يسمح للقرآن أن ينشئه.

وقد يحفظ لغة الإيمان دون أن يدخل الإيمان إلى موازينه.

وقد يعتاد رؤية العبادة حتى تصبح عنده جزءاً من أثاث البيت، لا نداء يخصه.

إن الألفة قد تحجب أحياناً. فالشيء الذي يراه الإنسان كل يوم قد يفقد عنده رهبة الاكتشاف. وربما نظر ابن نوح إلى أبيه بوصفه أباً اعتاد حديثه، لا رسولاً يحمل أمر الله. وحين غلبت صورة القرابة على معنى النبوة، أصبح النداء عنده نصيحة أبٍ خائف، لا وحيًا يرسم الحد الفاصل بين الحياة والموت.

ما أخطر أن يعتاد الإنسان صوت الحق حتى يتوقف عن سماعه!

يسمع الآيات تتلى، فلا تتحرك فيه؛ لأنه يعرف ألفاظها.

ويسمع التحذير، فيؤجله؛ لأنه سمع مثله من قبل.

ويرى الصالحين، فلا ينتفع بهم؛ لأن عينه ألفت وجودهم.

لكن كثرة سماع الحق لا تخفف المسؤولية، بل تزيدها. فالذي ضلّ بعد جهل ليس كالذي ضلّ والسفينة تُبنى أمام بابه.

لقد منح قربُ نوحِ ابنه فرصةً عظيمة، لكنه لم يمنحه حصانةً تلقائية. فالهداية لا تدخل القلب بمجرد المجاورة؛ لا بد أن يفتح لها الإنسان باب الاختيار.

قد يحمل المصباح إنسانٌ أعمى القلب، فلا ينتفع من نوره بشيء.

وقد يعيش المرء قريباً من البحر، ثم يموت عطشاً لأنه لم يمد يده.

العقيدة لا تورث

حين نادى نوح ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾،

جاء الجواب: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

ليس المعنى نفي البنوة النسبية، وإنما نفي دخوله في الأهل الذين شملهم وعد النجاة؛ لأن رابطة الإيمان قد انقطعت من جهته.

إن القرآن لا يحتقر رابطة الدم. لقد جعل لها حقوقاً، وأمر بصلة الأرحام، والإحسان إلى الوالدين ولو كانا غير مؤمنين، وحفظ للأسرة مقامها. لكنه يمنع النسب من أن يتحول إلى وثيقة نجاة، أو إلى سلطة تعلو على الحق.

فالأسرة تمنح الإنسان أصلاً اجتماعياً، لكنها لا تمنحه مصيراً أخروياً.

والأب الصالح قد يفتح لابنه أبواب المعرفة، لكنه لا يستطيع أن يؤمن نيابةً عنه.

والابن الصالح قد يبرّ أباه ويدعو له، لكنه لا يملك أن يمحو اختياره إن أصر على الباطل ومات عليه.

كل نفس تقف أمام الله وفي يدها كتابها.

وهذه الحقيقة تحمي الدين من التحول إلى امتياز عائلي. فلا توجد طبقة تملك القرب من الله بالنسب، ولا سلالة ترث الحق كما ترث الأرض. قد يخرج المؤمن من بيت طاغية، كما خرج إبراهيم من بيئة الأصنام، وقد يخرج الكافر من بيت نبي، كما وقع لابن نوح.

إن الله يخرج المعنى من غير المواضع التي يتوقعها الناس، ليظل الفضل مربوطاً بالهداية والعمل لا بالدم والأسماء.

وكلما حاول مجتمع أن يجعل النسب مصدرًا للقداسة، أعادته قصة ابن نوح إلى الحقيقة: لم ينفع قرب الدم من أحد أعظم أنبياء الله حين غاب الإيمان.

فكيف ينفع انتساب متأخر إلى رجل صالح مع حياة تناقض ما عاش الرجل من أجله؟

لا قيمة لأن تحمل اسم السفينة إذا كنت تقيم على الجبل.

ولا قيمة لأن تروي قصة نوح إذا كنت تكرر منطق ابنه.

عَاطِفَةُ الْآبِ وَحَدُّ الْعُبُودِيَّةِ

لم يكن حزن نوح ضعفاً في إيمانه. لقد كان أباً، والنبوة لا تنتزع من القلب إنسانيته. بل تركيه، فيصبح أكثر رحمةً وأشد إحساساً.

نادى ابنه في قلب الموج: (يَا بُنَيَّ).

وبعد غرقه نادى ربه: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي).

بين النداءين قلب يحاول إنقاذ من يحب: مرةً بالدعوة إلى السفينة، ومرةً بالسؤال بعد أن انقضى الأمر.

لكن الله علّمه أن العاطفة الصادقة لها حد تقف عنده: لا تُقدّم على علم الله، ولا تجعل صاحبها يسأل ما ليس له به علم.

وهنا تتجلى صعوبة العبودية: أن تسلم لله فيما يمسّ أعرق مواضعك.

من السهل أن نتحدث عن حكمة الله في أمر بعيد عن جرحك، لكن الامتحان يبدأ حين يدخل القدر إلى الغرفة التي أخفيت فيها أعز ما تحب. هناك لا يعود الإيمان فكرةً تناقشها، بل يصبح جسراً تعبر عليه فوق ألمك.

لم يُطلب من نوح ألا يحزن، بل طُلب منه ألا يجعل حزنه ميزاناً يحاكم به الحكم الإلهي.

وهذا فرق دقيق وعظيم.

لستَ مطالبًا أن تتحول إلى صخر حين تفقد عزيزًا، أو حين ترى من تحب يختار طريقًا يؤذيه. يمكنك أن تبكي وتدعو وتبذل النصيحة، لكنك تبقى عبدًا يعلم أن القلوب والأقدار والمصائر ليست ملكه.

إن الحب لا يمنحنا حق التحكم في مصير من نحب.

نحن نزرع ولا نخلق الحياة في البذور.

ونفتح النافذة، لكننا لا نأمر الشمس أن تدخل.

وننادي من السفينة، لكننا لا نستطيع أن نحمل قلبًا اختار الجبل.

وهذه الحقيقة مؤلمة، لكنها تنتقد الإنسان من شعور ساحق بالذنب. فقد يبذل الأب والمربي والداعية ما يستطيع، ثم يرفض الآخر. عندها ينبغي أن يراجع نفسه بصدق: هل قصر؟ هل أساء الأسلوب؟ هل أهمل واجبًا؟ فإن وجد تقصيرًا أصلحه واستغفر. أما إذا بذل الوسع، فلا يحمل نفسه وظيفة لم يمنحها الله لأحد من البشر.

لقد عجز نوح عن هداية ابنه، ولم يكن ذلك نقصًا في نبوته.

فالهداية بيد الله، والإنسان مسؤول عن اختياره.

لَا تُغْرِقْكَ الرَّغْبَةُ فِي إِنْقَادِ الْغَارِقِ

في قصة الابن مفارقة موجعة: كان نوح داخل السفينة، وكان ابنه خارجها. ولو خرج الأب من السفينة بدافع الحب، لما أنقذ ابنه، بل لأضاع نفسه.

ومن هنا نتعلم أن الرحمة لا تعني أن تتبع من تحب إلى موضع هلاكه.

قد يحاول بعض الناس أن يجروك إلى باطلهم باسم الوفاء، أو إلى صمتك باسم القرابة، أو إلى التنازل عن مبادئك حتى لا تفقدهم. وقد يقول لك قلبك: اقترب منهم أكثر، ولو غادرت شيئاً من سفينتك.

لكن الغارق لا يُنقذ بأن تغرق معه.

لا تنصر قريباً في ظلم لأنه قريب.

ولا توافق صديقاً على باطل لأنك تخشى خسارته.

ولا تهدم في نفسك حدود الله لتمنح من تحب شعوراً مؤقتاً بالرضا.

ابقَ في السفينة، ومد يدك إليه.

نادِه بأرقّ لغة: يا بني، يا أخي، يا صديقي.

افتح له الباب، واصبر على تردده، وبيّن له الخطر، لكن لا تجعل محبته تستدرجك إلى الجبل الذي اختاره.

فالوفاء للإنسان لا يكون بخيانة الحق الذي ينجيه.

وأحياناً تكون أشد صور الرحمة أن ترفض مشاركة من تحب خطأه. قد يغضب منك، ويحسبك قاسياً، لكن الموافقة التي تهدد سقوطه ليست رحمة؛ إنها مشاركة ناعمة في هلاكه.

كان نوح يحب ابنه حقًا، ولذلك دعاه إلى السفينة، ولم يَجْمَلْ له وهم الجبل.

حَالِ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

لم تمنح القصة الابن وقتًا طويلاً بعد رفضه: (وَحَالِ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ).

الموج هنا ليس ماءً فقط؛ إنه صورة الفرصة حين تنغلق.

كان النداء مسموعًا، والسفينة قريبة، والقرار ممكنًا. ثم دخل الموج، وانتهى كل شيء.

كم من إنسان يؤجل العودة إلى الله كأن الطريق سيظل مفتوحًا بالهيئة نفسها! يقول: سأفكر لاحقًا، وسأتوب حين أستقر، وسأصلح علاقتي حين تهدأ الظروف، وسأقول كلمة الحق حين يصبح ثمنها أقل.

لكن بين القرار وتنفيذه أمواج لا نعرف موعدها.

قد تتغير القلوب.

وقد تتراكم العادات حتى يصعب كسرها.

وقد يأتي الأجل.

وقد تصبح الكلمة التي كان يمكن قولها بلا ثمن أمس مستحيلة اليوم.

ليست الدعوة إلى الهلع، بل إلى احترام الفرصة. فما دام صوت الحق يبلغك، وما دام القلب يقدر على التحرك، فلا تقل: سأبحث عن جبل أولاً ثم أعود إلى السفينة.

الأمواج لا تستأذن خططنا المؤجلة.

وهذه إحدى أقسى حقائق القصة: أن الإنسان قد لا يُهلكه غياب المعرفة، بل تأخير الاستجابة لحظة واحدة بعد اكتمالها.

كُلُّ عَصْرِ يَبْنِي جِبَالَهُ

لم ينته جبل ابن نوح بانتهاء الطوفان. إنه يُبنى في كل عصر من مادة مختلفة. ثمة من يبني جبل العلم، فيظن أن معرفته بالمادة أغنته عن خالقها، وأن تفسير الظاهرة ألغى السؤال عن الذي أودع فيها قانونها.

وثمة من يبني جبل التقنية، فيحسب أن قدرة الإنسان على تعديل الأشياء تعني خروجه من ضعفه القديم، ثم تأتي أزمة واحدة فتكشف هشاشة النظام كله.

وثمة من يبني جبل الدولة، فيتوهم أنها تستطيع أن تمنحه الأمن ولو قامت على الظلم، وينسى أن الظلم نفسه شقّ يتسع في أساس البناء.

وثمة من يبني جبل الجماعة، فيسلم لها بصيرته، ويظن أن كثرة أتباعها تعصمه من الخطأ.

وثمة من يبني جبل الشهرة، فيحسب أن وجوده في ذاكرة الناس يحميه من الفناء، ولا يدري أن الضجيج يزول أسرع مما يتصور.

وثمة من يبني جبل الصورة؛ يحرص أن يبدو سعيدًا، ناجحًا، مستقيمًا، بينما يغرق في الداخل، كأن اقتناع الناس بنجاته يمكن أن يمنع الماء من بلوغ قلبه. وتبقى كلمة نوح عابرةً للأزمنة: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

لا تقول الآية: لا أسباب. لكنها تنزع عنها وهم الاستقلال، وترد القلب إلى أصل الأمان. فالرحمة قد تأتيك عبر سبب، لكنها ليست حبيسةً فيه. وقد تمنع عنك سببًا لأن نجاتك في غيره. وقد تكسر الجبل الذي تعلقت به كي تتعلم أن الأرض كلها لله.

السَّفِينَةُ وَالْجَبَلُ: صُورَتَانِ لِلْحَيَاةِ

السفينة في ظاهرها أقل ثباتًا من الجبل. تهتز مع الموج، بينما يبدو الجبل راسخًا لا يتحرك. لكن الثبات الحقيقي لا يعني ألا تهتز؛ بل أن تصل.

قد تهتز حياة المؤمن بالمحن، ويخاف، ويبكي، ويضيق صدره، لكنه يظل داخل حدود الإيمان، فتحمله الرحمة إلى الشاطئ.

وقد يعيش آخر فوق جبل من الرفاه والقوة، لا تهزه أيام طويلة، ثم يسقط حين يأتي الامتحان الذي لم يُبْنَ له.

فلا تتخذ بالاستقرار الظاهر.

السفينة المضطربة قد تكون أقرب إلى النجاة من جبل ساكن.

والقلب الذي يبكي وهو متعلق بالله أقوى من قلب يضحك لأنه لم يدرك بعد حجم الطوفان.

إن الإيمان لا يعد الإنسان بحياة لا تموج، وإنما يمنحه ما يعبر به الموج. لا يلغي الخوف الإنساني، لكنه يمنع الخوف من أن يقوده إلى الجبل الخطأ. ولا يمنع الفقد كله، لكنه يجعل وراء الفقد شاطئاً ومعنى.

السفينة طاعة تبدو هشة وتحمل صاحبها.

والجبل معصية تبدو صلبة وتخذل صاحبها.

السفينة اعتراف بالافتقار.

والجبل غرور بالقدرة.

السفينة تقول: باسم الله مجراها ومرساها.

والجبل يقول: يعصمني.

وبين الكلمتين يتحدد المصير.

مَنْ أَهْلُكَ حَقًّا؟

تضع القصة سؤالاً مؤلماً أمام مفهوم الانتماء: من أهل الإنسان حقاً؟

ليس الجواب أن رابطة العقيدة تلغي روابط الفطرة، ولا أن المؤمن يصبح بارداً تجاه أسرته إذا خالفته. لقد بقي نوح أباً محبباً حتى اللحظة الأخيرة. لكن القصة تقول إن أعمق رابطة تصنع المصير هي رابطة الاتجاه إلى الله.

قد يسكن شخصان بيتاً واحداً، لكن أحدهما يتجه بقلبه إلى السفينة والآخر إلى الجبل.

وقد يفصل بين مؤمنين بحر وجغرافيا ولغة، ثم يلتقيان في المعنى الذي يحمل حياتهما.

البيت الحقيقي ليس جدراناً فقط، بل قبلة مشتركة للقلب.

وحين تصبح الأسرة عائقاً عن الله، يدخل المؤمن امتحان التوازن الدقيق: يحفظ حق القرابة، ويبذل الرحمة، ولا يقطع المعروف، لكنه لا يمنح أحداً حق إعادة تشكيل عقيدته.

فالقرابة التي تطلب منك أن تبتعد عن الله لا تحميك؛ إنها تدعوك إلى جيلها.

والجماعة التي تطلب منك نصره باطلها كي تثبت ولاءك لا تجعلك من أهلها حقاً؛ بل تقتطع من ضميرك ما يغرقك معها.

ليس الوفاء أن تنتمي إلى الأشخاص ضد الحق، بل أن تظل وفياً للحق حتى يكون وجودك باباً لنجاتهم.

نِدَاءٌ قَبْلَ الْمَوْجَةِ

تبقى صورة نوح وهو ينادي ابنه من أكثر صور القرآن وجعاً. أبٌ في السفينة، وابنٌ عند طرف الهلاك، وموجة تستعد لأن تكون الكلمة الأخيرة.

لكن القرآن لم يحفظ هذه الصورة ليزيد حزننا فقط؛ حفظها لتصبح نداءً لكل إنسان قبل موجته.

قد تكون السفينة كلمة حق تعرفها وتؤجل اتباعها.

وقد تكون توبةً يفتح الله بابها لك منذ سنوات.

وقد تكون مظلمةً يجب أن تردّها.

وقد تكون علاقةً فاسدة تعرف أنها تستنزف إيمانك.

وقد تكون عادةً تزداد قوة كلما أجّلت مقاومتها.

وقد يكون الجبل منصباً أو مالاً أو شخصاً أو وهماً داخلياً تقول إنه سيعصمك.

وتأتيك القصة من عمق التاريخ:

لا تختبر ارتفاع الماء.

لا تَوَجُلْ الرُّكُوبَ حَتَّى يَثْبُتَ لَكَ الْجَبَلُ عِزَّهُ؛ فَقَدْ يَثْبُتُ ذَلِكَ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي
لَا يَبْقَى لَكَ فِيهَا طَرِيقٌ إِلَى السَّفِينَةِ.

ارْكَبْ حِينَ يَأْتِيكَ النِّدَاءُ.

فَالْإِيمَانُ لَيْسَ إِعْجَابًا بِالسَّفِينَةِ مِنْ بَعِيدٍ، وَلَا اعْتِرَافًا بِمَهَارَةِ بَنَائِهَا، وَلَا انْتِسَابًا
إِلَى صَانِعِهَا.

الْإِيمَانُ أَنْ تَضَعَ قَدَمَكَ فِيهَا.

إِنْ ابْنُ نُوحٍ لَمْ يَهْلِكْ لِأَنَّهُ لَمْ يَحِبْ أَبَاهُ، وَلَا لِأَنَّهُ أَبَاهُ لَمْ يَحِبَّهُ. هَلْكَ لِأَنَّهُ اخْتَارَ
فِي اللَّحْظَةِ الْحَاسِمَةِ مَصْدَرًا آخَرَ لِلنَّجَاةِ.

وَهَذِهِ هِيَ مَأْسَاةُ الْإِنْسَانِ فِي أَعْمَقِ صَوْرَتِهَا: أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا مِنَ الرَّحْمَةِ، ثُمَّ
يَبْتَغِدُ عَنْهَا خَطْوَةً وَاحِدَةً ظَنًّا أَنَّ الْجَبَلَ أَكْثَرُ أَمَانًا.

غَلِبَهُ الْجَبَلُ قَبْلَ أَنْ يَغْلِبَهُ الْمَاءُ.

غَلِبَهُ حِينَ دَخَلَ قَلْبُهُ وَصَارَ ثِقَتَهُ الْأَخِيرَةَ.

أَمَّا الْمَوْجُ فَلَمْ يَفْعَلْ إِلَّا أَنْ كَشَفَ الْهَزِيمَةَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الدَّخْلِ.

فَلَا تَبْحَثْ فَقْطَ عَنِ الطُّوفَانِ الَّذِي يَحِيطُ بِكَ؛ ابْحَثْ عَنِ الْجَبَلِ الَّذِي يَسْكُنُكَ.

فَرُبَّمَا كَانَتْ نَجَاتُكَ كُلُّهَا فِي أَنْ تَنْزِلَ عَنْهُ.

الفصل الخامس

هُودٌ وَعَادٌ

الحضارة التي امتلكت القوة وفقدت البصيرة

انتهى الطوفان، وهبط الناجون بسلام من الله وبركات. لكن الماء الذي طهر وجه الأرض لم يطهر الطبيعة البشرية من قابلية الانحراف. فقد بقي الامتحان ينتقل من جيل إلى جيل، وبقي الإنسان قادرًا على أن ينسى ربه حتى لو كان أحد أسلافه قد خرج من سفينة النجاة.

ومن ذرية الناجين نشأت أمم، واتسع العمران، وعادت القوة إلى الأرض. وفي الأحقاف قامت عاد؛ أمة ذات بأس وبنيان، امتلكت من أسباب التمكين ما جعلها تنظر إلى نفسها كأنها آخر صورة ممكنة للقوة.

فأرسل الله إليهم واحدًا منهم: {وَالِي عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا}.

قال: {أَخَاهُمْ}.

لم يأتهم غريبًا عن لغتهم وأوجاعهم وتاريخهم، بل جاءهم رجل يعرفهم ويعرفونه. كان من نسيج مجتمعهم، لكن الوحي حرره من أمراض ذلك النسيج. وهذه من رحمة الله بالأمم: أن يبعث إليها من يفهم لسانها، ويعرف

مداخل نفوسها، ولا يستطيع أهلها أن يعتذروا بأن الرسالة جاءت من عالم لا يعرفهم.

كانت الأخوة تمنح دعوة هود دفئها، لكنها لم تمنعه من مواجهة قومه بحقيقتهم. فالأخوة الصادقة ليست أن تجامل أخاك حتى يهلك، بل أن تقول له الكلمة التي تنقذه ولو آلمته.

قال هود: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

إنه النداء نفسه الذي حمله نوح من قبل: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾. فالطوفان تغير، لكن أصل النجاة لم يتغير. وكل أمة تصنع أوثانها من المادة التي تناسب مرحلتها؛ غير أن المرض واحد: أن يمنح الإنسان شيئاً من الخلق موضعاً لا يليق إلا بالخالق.

ولعل وثن عاد الأكبر لم يكن حجراً قائماً أمامهم فحسب، بل القوة التي سكنت نفوسهم. فالإنسان قد يضع الصنم في معبد، وقد يضعه في داخله. وحين يعتقد أنه لا يُغلب، يصبح بأسه معبوداً وإن لم يسمّه إلهاً.

قال لهم هود: ﴿إِنِّي أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾. فالشرك افتراء على حقيقة الوجود؛ يمنح المخلوق ما لا يملك، ويقتطع من حق الله ما لا يجوز أن يكون لغيره. وكل تصور يجعل القوة مستقلة عن واهبها هو كذب على الكون، مهما بدا منسجماً مع الواقع القريب.

دَعْوَةٌ لَا تُفَاوِضُ عَلَى أَجْرِهَا

قال هود: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

تتكرر هذه الكلمة على ألسنة الأنبياء؛ لأن استقلال الداعية عن أموال قومه يحفظ للدعوة حريتها. فمن ينتظر أجره من الناس قد يجد نفسه، من حيث لا يشعر، يزن كلماته بمقدار ما تحفظ له رضاهم.

أما هود فقد ربط أجره بالذي فطره. وكأن في اختيار هذا الوصف معنىً خاصاً: الذي أوجدني من العدم هو الذي يتولى أمري، فلا أحتاج أن أبيع كلمته لأضمن بقائي.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي عقلٍ يسمح لكم أن تتهموا رجلاً يواجه مجتمعاً قوياً، ولا يطلب مالاً ولا منصباً، بأنه يصنع دعوته لمصلحة شخصية؟ إنه لا يقترب من خزائنكم، بل يقترب من موضع مرضكم. ولو أراد الدنيا لجمال القوة بدل أن يكشف غرورها.

إن صدق المصلح يظهر أحياناً في الأشياء التي يخسرها بسبب كلمته، لا في الأشياء التي يجمعها حوله. فقد يكون قادراً على أن يعيش آمناً إذا صمت، وأن يقترب من أهل النفوذ إذا زين لهم صورتهم، لكنه يختار وحشة الحق؛ لأن أجره عند الذي فطره.

والاستغناء عن ثمن الكلمة لا يعني احتقار حاجات الحياة، بل يعني ألا تتحول الحاجة إلى يد خفية تمسك لسان صاحبها.

قد يجوع الجسد، لكن الأسوأ أن يجوع الضمير إلى رضا الناس حتى يأكل من مبادئه.

الِاسْتِغْفَارُ الَّذِي يُصْلِحُ الْعُمَرَانَ

ثم قال هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

لم يدعهم التوحيد إلى ترك عمرانهم وقوتهم، بل وعدهم بقوة تُضاف إلى قوتهم. فالدين لا يعادي قوة الإنسان؛ إنه يعادي أن تنفصل القوة عن العبودية فتتحول إلى طغيان.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾.

كانوا أقوياء، والقرآن لا ينكر واقعهم. لكنه يخبرهم أن القوة الحالية ليست السقف الأخير للعطاء، وأن باب الزيادة يمرّ من طريق أخلاقي: الاستغفار والتوبة.

وهنا تتصل السماء بالضمير، والعمران بالعقيدة. ليست الأخلاق زينة تُضاف إلى الحضارة بعد اكتمالها، بل هي من شروط بقائها. فحين يفسد الضمير، قد تستمر الأبنية زمنًا، لكن الشقوق تبدأ من الداخل.

إن الأمة لا تسقط فقط لأنها فقدت أدوات القوة، بل قد تسقط لأنها امتلكت الأدوات وفقدت الحكمة التي تضبطها. فتصير قوتها سلاحًا موجهاً إلى جسدها، ويتحول غناها إلى مادة للترف، ويتحول تنظيمها إلى آلة محكمة للظلم.

كان هود يدعوهم إلى استغفار لا يكتفي بحركة اللسان. فالاستغفار الحقيقي مراجعةٌ للذات الحضارية كلها: كيف جمعنا قوتنا؟ وفي أي طريق استعملناها؟ من دفع ثمن الأبنية التي نتباهى بها؟ وأي ضعفاء سحقناهم كي ترتفع قصورنا؟

ثم التوبة: أن يتحول الاعتراف إلى تغيير، وأن تُعاد القوة إلى وظيفتها الصحيحة؛ حماية الحق، وإقامة العدل، وعمارة الأرض دون استعباد أهلها. (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا).

المطر هنا ليس رزقاً مادياً فحسب؛ إنه صورة اتصال الأرض بالسماء. فالأرض مهما امتلكت من أدوات لا تستغني عن قطرة تنزل من فوقها. والحضارة مهما عظمت لا تخلق شروط وجودها من العدم؛ إنها تعيش على هواء لم تصنعه، وماء لم تنشئ مادته، وأرض سبقتها، وقوانين أودعها الله في الكون.

وما أضعف الحضارة حين تنسى مصادر حياتها!

قد تبني السدود، لكنها لا تخلق الماء.

وقد تتقن الزراعة، لكنها لا تأمر البذرة بالحياة من ذاتها.

وقد تعرف مسار الرياح، لكنها لا تملك أن تمنح الكون قانونًا جديدًا.

إن العلم يكشف بعض طرائق النعمة، لكنه لا يحول الإنسان إلى واهبها.

لَمْ تَأْتِنَا بِبَيِّنَةٍ

واجه قوم هود هذا النداء بقولهم: (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ).

بدأوا بدعوى غياب البينة، ثم كشفوا بعد ذلك أن قرارهم قد اتخذ سلفًا: (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا).

فإذا كانوا قد عزموا ألا يتركوا آلهتهم مهما قيل لهم، فما قيمة المطالبة بالبينة؟ إنها حجة تُستخدم لحراسة القرار، لا للوصول إلى الحقيقة. فقد يطالب الإنسان بالدليل لا لأنه مستعد لاتباعه، بل لأنه يريد أن يبدو رفضه عقلانيًا. فإذا جاءه الدليل انتقل إلى غيره، ثم إلى غيره؛ لأن المشكلة ليست في الطريق إلى الاقتناع، بل في الثمن الذي يترتب عليه.

ترك الآلهة لم يكن تغييرًا دينيًا محدودًا. كانت الأصنام مرتبطة بهوية القوم، ومكانة السادة، ونظام المصالح، وصورة الأسلاف. والإنسان قد يدافع عن فكرة يعلم ضعفها لأنه يخشى أن يسقط معها البناء الذي منحه مكانته.

كم من باطل يعيش لا لقوة حجته، بل لأنه يحمل فوق ظهره مصالح كثيرة!

ويصبح الاعتراف بخطئه مكلفاً؛ لأنه لا يطلب من الإنسان أن يغير رأياً فقط، بل أن يعيد النظر في تاريخ عايشه، وجماعة انتمى إليها، ومكاسب حصل عليها.

لذلك قالوا بلهجة حاسمة: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

لم يتركوا نافذة للسؤال. كانوا لا يزالون يتحدثون مع هود، لكنهم أغلقوا باب الاستجابة قبل انتهاء الحديث.

وهذه من أشد صور العمى: أن يستمر اللسان في الجدل بعد أن يكون القلب قد وقّع قرار الرفض.

إِنْ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ

لما عجزوا عن تفسير ثبات هود، قالوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

اتهموه بأن بعض آلهتهم أصابه بسوء في عقله، ولذلك صار يعييبها ويدعو إلى تركها. والمفارقة أنهم جعلوا اضطرابه المزعوم دليلاً على قوة الأصنام، مع أن هذه الأصنام لم تستطع أن تقدم برهاناً على وجود قدرتها.

إن المجتمع المنغلق قد يعجز عن تصور إنسان خرج من سلطانه بإرادة واعية، فيتهمه بالجنون. فما دام النظام في نظرهم كاملاً، فلا بد أن يكون الخلل فيمن رفضه.

حين تكون الجماعة هي معيار العقل، يصبح كل اختلاف مرضاً.

وحين يصير الموروث مقدساً بذاته، يصبح السؤال عنه عدواناً.

وحين تتحد المصلحة بالعقيدة، يصبح المصلح خطراً يجب تفسيره نفسياً بدل مناقشة فكرته.

قالوا: أصابك سوء.

كأن سلامة العقل عندهم هي أن يكرر الإنسان ما وجد عليه قومه، وأن العقل يفسد لحظة يبدأ فيها السؤال.

لكن هوداً أجابهم بإعلان من أعظم إعلانات الثبات في القرآن: (قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِذَّبُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ).

إنها ليست شجاعة رجل غافل عن قوة خصومه، بل طمأنينة رجل عرف مصدر القوة كلها.

(إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ) أولاً، ثم (وَاشْهَدُوا). قدّم شهادة الله؛ لأن موقفه لم يُبَيَّنْ لاستعراض البطولة أمام القوم، بل تأسس في صلته بربه. وحين استقر هناك، استطاع أن يعلن براءته أمامهم.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا).

جميعاً: أنتم وآلهتكم، وملوكم وعامتكم، وأدوات قوتكم كلها.

(ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ).

لا تؤخروا. اجمعوا ما تستطيعون وافعلوا الآن.

من أين جاءت هذه القوة إلى رجل يقف وحده أمام أمة تقول: (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)؟

جاء الجواب في الآية التالية: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ).

رَبِّي وَرَبِّكُمْ

لم يقل هود: توكلت على ربي فحسب، بل قال: (رَبِّي وَرَبِّكُمْ).

فالذي يحميه هو نفسه الذي يملك خصومه. لم يخرجوا بكفرهم من سلطان الله، ولم تصبح قوتهم منطقةً مستقلة عن تدبيره. إنهم يتحركون في ملكه، ويتنفسون من رزقه، ويستخدمون أجسادًا خلقها، ويخططون بعقول وهبها لهم.

وهذا هو سر طمأنينة المؤمن أمام الطاغية: أن الطاغية لا يملك نفسه.

قد يملك جنداً وسلاحاً وسجنًا، لكنه لا يملك أن يضيف إلى أجله لحظة، ولا أن ينفذ فعلًا لم يأذن الله بوقوعه. ليس معنى ذلك أن المؤمن لا يتألم أو لا يُبْتَلَى؛ فقد يُقْتَل ويُسَجَن ويُهَجَّر، لكن أحدًا لا يستطيع أن يفعل به خارج علم الله وحكمته، ولا أن يسلبه النتيجة التي كتبها الله لصبره.

ثم قال هود: (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

كل دابة تحت قهره وسلطانه، لا تشذ عن ملكه. والناصية موضع القيادة؛ فكأن الآية تنزع من القوى المتضخمة وهم استقلالها، وتعيدها إلى حقيقتها: مخلوقات مقهورة تمضي إلى ما قدر الله.

لكن القدرة المطلقة لا تعمل اعتباطاً: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

إن تدبيره عدل وحكمة، لا ظلم فيه ولا عبث. وهذه هي الطمأنينة الكاملة: ليست القضية أن القوة العليا مع المؤمن فحسب، بل أن القوة العليا عادلة. فلو كان الكون تحت سلطان قدرة عمياء لما وجد القلب أماناً، أما وهو في تدبير حكيم لا يظلم مثقال ذرة، فإن المصائر مهما التبست في منتصف الطريق تتجه إلى العدل.

قد لا نفهم كل منعطف، لكن الطريق في علم الله مستقيم.

وقد نرى الظالم يرتفع، فلا يعني ذلك أن الميزان اختل؛ ربما كان ارتفاعه هو الطريق إلى سقوط يسمعه العالم كله.

وقد نرى المؤمن يضيق عليه، فلا يعني ذلك أن الله أهمله؛ ربما كان يُبنى في داخله من المعاني ما هو أعظم من النجاة القريبة.

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

هذه ليست جملة تُقال في الرخاء فقط؛ إنها اليقين الذي يمسك القلب حين يعجز عن تفسير الأحداث. أن تعلم أن الحكمة قائمة وإن غابت عنك، وأن العدل لم يتوقف وإن تأخر ظهوره، وأن التاريخ لا يمشي بلا رب.

فَإِنْ تَوَلَّوْا

بعد البلاغ والمواجهة، قال هود: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾.

لا يستطيع الرسول أن يمنعهم من التولي، لكنه يستطيع ألا يمنع نفسه من البلاغ. وهنا تتحرر الرسالة مرة أخرى من عبودية النتيجة.

لقد أدى هود ما عليه. قال الحق واضحًا، ولم يشتر قبولهم بحذف شيء منه، ولم يستفزه رفضهم إلى تجاوز حدود مهمته.

ثم أعلن الحقيقة التي تهز غرور الحضارات: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾.

أنتم لستم ضرورة للكون.

هذه الكلمة التي يصعب على القوة أن تسمعها. فكل حضارة تبلغ ذروتها تميل إلى الاعتقاد أن التاريخ انتهى عندها، وأن الأرض لا تستطيع الاستمرار من دونها. تخط بين طول حضورها وخلودها، وبين اتساع نفوذها وكونها قدرًا لا يُستبدل.

لكن الله يقول لعاد: يستخلف قَوْمًا غَيْرَكُمْ.

الأرض لم تبدأ بكم، ولن تموت بعدكم.

والمشروع الإلهي لا يتوقف لأن أمةً رفضت حمل الأمانة. فإذا استغنت الجماعة عن الحق، لم يستغن الحق عنها فحسب، بل أقام الله غيرها في الموضع الذي أضاعته.

(وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا).

معصية العاصي لا تنقص من ملك الله، كما أن طاعة المطيع لا تزيد فيه. الإنسان هو الذي ينتفع ويخسر. وحين يحارب الحق يظن أنه يوجه ضربته إلى الرسالة، بينما تقع الضربة في كيانه هو.

من يقذف حجرًا إلى السماء لا يجرح السماء؛ يعود الحجر عليه.

ومن يطفئ مصباح الهداية في بيته لا يطفئ الشمس؛ يختار الظلام لنفسه.

إن الله غني عن العالمين، لكن العالمين لا يستغنون عنه لحظة.

نَجَاةٌ بِرَحْمَةٍ

ثم جاء أمر الله: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ).

تكرر فعل النجاة، وكان المشهد يحيط بالمؤمنين من جهتين: نجاة من العذاب الدنيوي، ونجاة من العذاب الغليظ.

لكن القرآن لم يقل: نجّيناهم بقوتهم، ولا حتى باستحقاق منفصل عن فضل الله، بل قال: (بِرَحْمَةٍ مِنَّا).

لقد آمنوا وأطاعوا وصبروا، غير أنهم لم يدخلوا على الله بمنطق المعاوضة المتكبرة: فعلنا فاستحققنا. فطاعتهم نفسها توفيق، وثباتهم مدد، والنجاة في نهايتها رحمة.

المؤمن يعمل بكل ما يملك، ثم لا يرى عمله ثمنًا مساويًا للنعمة. يعرف أن المركب الذي حمله هو فضل الله، وأن يده ما كانت لنتمسك بالحبل لو لم يثبتها الله.

وفي الجهة الأخرى تقف عاد: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾.

إشارة إلى أمة كانت تقول بلسان قوتها: من أشد منا؟ ثم أصبحت بعيدة يُشار إليها باعتبارها خبرًا.

ما أسرع انتقال الحضارة من الحضور الطاغي إلى اسم في الذاكرة!

كانت تملك الأبنية والرجال والأدوات، لكن القرآن يلخص حقيقتها في ثلاثة أفعال:

جحدوا.

وعصوا.

واتبعوا.

جحدوا آيات ربهم، فعطلّوا مصدر الهداية.

وعصوا رسله، فقطعوا صلتهم بالنموذج الذي يبين لهم الطريق.

واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فسلمّوا قيادهم للسلطة المتكبرة.

إن سقوط الأمم لا يصنعه الطاغية وحده؛ يصنعه أيضاً الذين اتبعوا أمره. فالجبار قد يملك القهر، لكنه يحتاج إلى جماهير تمنحه الطاعة، ونخب تبرر له، وألسنة تحول ظلمه إلى ضرورة وطنية أو حكمة سياسية.

وعندما تستبدل الأمة هداية الرسل بأوامر الجبابرة، تكون قد اختارت الطوفان الذي يناسبها.

ليس الجبار فرداً معزولاً؛ إنه ذروة ثقافة قبلت أن تتنازل عن ضميرها في مقابل الأمن أو المصلحة أو القرب من القوة. والعنيد لا يستطيع أن يقيم نظامه طويلاً إلا إذا وجد من يحولون عناده إلى مؤسسات وعادات وخطاب عام.

ولهذا لم تقل الآية إنهم خافوا الجبار فقط، بل قالت: (وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ). لقد جعلوا إرادته مرجعاً، فإذا قال تحركوا، وإذا ظلم برروا، وإذا كذب أعادوا كذبه حتى بدت كأنها حقيقة.

في ذلك الموضع تكون الأمة قد فقدت بصيرتها قبل أن تفقد قوتها.

اللَّعْنَةُ الَّتِي تَلْحَقُ الرَّيْفَ

(وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ).

كانوا يتبعون الجبار، فأتبعوا اللعنة. كأن الجزاء جاء من جنس حركتهم: اختاروا السير خلف الطغيان، فسار خلفهم الخزي في الدنيا والآخرة.

واللعنة هي الطرد من الرحمة. وما أبأس القوة إذا كانت تمضي بصاحبها بعيداً عن الله! قد تتسع أرضه ويضيق موضعه في الرحمة، وقد يعلو اسمه في الناس ويسقط من مقام القبول.

ثم جاء التعريف الأخير بعاد: (كَفَرُوا رَبَّهُمْ).

لم يقل: كفروا إلهاً بعيداً لا صلة له بهم، بل (رَبَّهُمْ)؛ الذي خلقهم ورباهم ورزقهم ومنحهم القوة التي استعملوها في معصيته.

وهنا تبلغ المأساة ذروتها: أن يحارب الإنسان ربه بالنعم التي وهبه إياها.

أن يستعمل العقل في إنكار واهب العقل.

واللسان في جحود من علّمه البيان.

والقوة في التمرد على من أمده بها.

والأرض في إقامة ما يبغض مالك الأرض.

إن الكفر ليس غياب معرفة مجردة فقط؛ إنه خيانة لمعنى الربوبية الذي يحيط
بالإنسان من كل جانب.

(أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ).

انتهت القوة إلى البعد.

كانوا يريدون العلو، فأبعدوا.

وأرادوا أن يكونوا فوق الناس، فسقطوا من الرحمة.

وأرادوا الخلود في الأرض، فلم يبق منهم إلا التحذير من مصيرهم.

الْحَضَارَةُ الَّتِي هَزَمَتْ نَفْسَهَا

لم تُهزم عاد حين جاءت الريح فقط؛ هُزمت يوم فقدت قدرتها على سماع
هود.

فالريح كشفت السقوط، لكنها لم تبدأه.

بدأ السقوط حين تحولت القوة من نعمة إلى برهان على الاستغناء، وحين
أصبح الموروث أهم من الحقيقة، وحين اتبع الناس أمر الجبار، وحين ظنوا
أن البنيان المرتفع يستطيع أن يرفعهم فوق سنن الله.

إن الحضارة لا تكون قويةً لأنها تستطيع أن تهدم خصومها، بل لأنها
تستطيع أن تمنع قوتها من هدم إنسانيتها.

ولا تُقاس سلامتها بما تنتجه من أدوات فقط، بل بما تنتجه الأدوات فيها من أخلاق.

فإذا زادت القدرة ونقص الضمير، لم تتقدم الحضارة إلا في صناعة سقوط أكثر ضخامة.

لقد عرض هود عليهم طريقًا يجمع الإيمان والقوة: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ... وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾.

لم يقل لهم: تخلوا عن قوتكم، بل: طهروها.

أعيدوا نسبتها إلى واهبها.

واجعلوها في خدمة العدل.

واعلموا أن أشد الأمم قوةً هي التي تستطيع أن تقف أمام شهوات قوتها وتقول: هنا حد الله.

لكنهم اختاروا أن تظل القوة بلا بصيرة، فتحوّلت من جناح يحملهم إلى صخرة تسحبهم إلى القاع.

وهذه هي رسالة عاد إلى كل حضارة بعدها:

ليست المشكلة أن تكون قويًا.

المشكلة أن تنسى، تحت وهج القوة، من الذي منحك إياها، ولماذا منحك،
وإلى أين يصير أمرك حين تُسأل عنها.

فالقوة التي لا تسجد لله ستجعل صاحبها يسجد لنفسه.

ومن سجد لنفسه، عجز عن رؤية الريح وهي تتجمع في الأفق؛ لأن عينيه
كانتا مشغولتين بالنظر إلى ارتفاع بنيانه.

الفصل السادس

صَالِحٌ وَثَمُودُ

حين تُذبح الآية قبل أن تُذبح الناقة

بعد عاد جاءت ثمود. ورثت الأرض بعد أمة ظنت أن قوتها تحميها، ورأت آثار الهالكين، وعرفت أن حضاراتٍ كانت قبلها ثم زالت. لكن الإنسان قد يسكن إلى جوار العبرة طويلاً حتى تفقد العبرة صوتها، وقد يبني بيته من حجارة التاريخ دون أن يتعلم من سقوط الذين سبقوه.

أرسل الله إلى ثمود رجلاً منهم: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا).

وتعود كلمة (أَخَاهُمْ) لتكشف قرب النبي من قومه. لم يكن صالح طارئاً مجهولاً، بل كان واحداً من أبناء المجتمع، يعرفون صدقه وعقله ونشأته. وكانت لهم فيه آمال قبل أن يأتيهم بالوحي؛ فلما دعاهم إلى الله انقلبت الآمال إلى خيبة في زعمهم.

وهذه مفارقة تتكرر: يعجب المجتمع بالإنسان ما دام نبوغه يتحرك داخل حدوده، فإذا استعمل بصيرته في نقد أصوله الفاسدة، اتهمه بأنه خذل التوقعات.

كان صالحاً في أعينهم ما دام يمكن أن يكون امتداداً لهم.

فلما أصبح مرآة تكشفهم، صار مشكلة.

مِنَ الْأَرْضِ وَإِلَيْهَا

قال صالح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.

يبدأ النداء بالتوحيد، ثم يذكرهم بأصلهم ووظيفتهم: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

هذه الأجساد التي اشتدت، والأيدي التي نحتت الصخر، والعقول التي خطت للبناء؛ خرجت في أصلها من تراب. وما أبلغ أن يُذكر المتكبر بمادته الأولى! فكل ارتفاع لا يتذكر التراب الذي بدأ منه يتحول إلى غرور.

ليس التذكير بالأرض إهانة للإنسان، بل إعادة له إلى توازنه. هو مكرم بالنفخة التي منحته الوعي والمسؤولية، لكنه ليس إلهاً. قد يرتفع بنيانه، غير أن قدميه تبقيان على الأرض، وجسده يعود إليها.

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

أي جعلكم عُمَّارًا لها، ومكنكم من بنائها واستثمار خيراتها. فالعمران في الرؤية القرآنية ليس فعلًا خارج الدين، بل جزء من أمانة الإنسان. أن يزرع ويبني ويستخرج المنافع ويحوّل المادة إلى حياة نافعة.

لكن العمارة ليست أن تُقام الجدران فقط. قد يعمر الإنسان الحجر ويخرب البشر، فيكون بارعًا في الهندسة فاشلاً في الاستخلاف.

وقد ترتفع المدينة بينما يهبط الضمير.

وقد تتسع الطرق بينما تضيق العدالة.

وقد تصبح البيوت أكثر صلابةً، ويصبح الإنسان داخلها أكثر هشاشةً ووحشةً.

إن عمارة الأرض لا تنفصل عن عمارة القلب؛ لأن اليد التي تبني الخارج تتلقى وجهتها من الداخل. فإذا فسد القلب، تحولت أدوات العمران إلى وسائل للاحتكار والاستعلاء والفساد.

لقد كانت ثمود تتحت من الجبال بيوتاً آمنة، لكنها لم تستطع أن تتحت في قلوبها موضعاً للتواضع.

وملكت القدرة على تطويع الصخر، لكنها عجزت عن تطويع الكبر.

وهنا يظهر الفرق بين السيطرة على المادة والسيطرة على النفس. قد يبلغ الإنسان مرتبةً عظيمةً في إخضاع الطبيعة، ويبقى عبداً لشهوة صغيرة في داخله.

قَرِيبٌ مُجِيبٌ

بعد التذكير بالأصل والمهمة، فتح صالح باب الرجوع: (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ).

لم يقل: إن ربي ينتظر أن يعاقبكم، بل قال: (قَرِيبٌ مُجِيبٌ). فمن وراء التحذير قلب نبوي يريد لهم الحياة، ورب رحيم يفتح لهم الباب قبل أن تنزل الصيحة.

قريب كما يليق بجلاله، محيط بعباده علمًا وقدرةً وإجابة، من غير أن يشبه
قربه قرب المخلوقين؛ سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

قريب من الندم قبل أن يتحول إلى كلمات.

وقريب من الدعاء حين يعجز اللسان عن ترتيبه.

وقريب من العبد الذي أثقلته خطيئته حتى ظن أن طول الطريق يمنعه من
العودة.

ومجيب؛ لكن الإجابة ليست دائمًا صورةً مطابقة لما رسمناه. فقد يجيب
بإعطاء المطلوب، أو بصرف شر، أو بتأخير يحمل في داخله إعدادًا، أو بمنع
يكون هو الرحمة التي لم نفهمها.

إن استشعار القرب يحرر الإنسان من وحشة التوبة. فالعائد لا يقطع صحراء
حتى يبلغ الله؛ إنما يحتاج أن يخرج من إصراره. وما بين العبد وربّه ليس بُعد
المكان، بل حجاب الغفلة والكبر.

وحين يسقط الحجاب، يجد أن الرحمة كانت أقرب إليه من الطريق الذي هرب
فيه.

قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا

جاء جواب قومه: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾.

كانوا يرجون فيه شأنًا يتفق مع نظامهم. ربما رأوا فيه عقلًا ووجهةً وقدرةً على القيادة، وتوقعوا أن يصبح صوتًا يضيف قوةً إلى بنائهم، لا صوتًا يسأل عن أساسه.

﴿قَبْلَ هَذَا﴾.

قبل أن تقول الحقيقة.

قبل أن تمسّ الموروث.

قبل أن تضع آلهتنا أمام السؤال.

إن المجتمع قد يمنح الإنسان مكانةً ما دام نبوغه خادمًا لأوهامه. فإذا حرره الحق من وظيفة التزيين، قالوا له: خيبت رجاءنا.

كانوا يريدون صالحًا كما تخيلوه، لا صالحًا كما صاغه الوحي.

وهذا امتحان شديد للمصلح: أن يرى محبة الناس القديمة تتحول إلى خصومة؛ لا لأنه تغير إلى الأسوأ، بل لأنه أصبح أكثر صدقًا. وقد يساومه الحنين إلى مكانته السابقة: لو خفت عبارتك قليلًا لاستعدت ودّهم، ولو تركت هذه القضية لعادوا يرونك «مرجوًّا».

لكن المكانة التي يشتريها الإنسان بصمته عن أصل الرسالة ليست تكريماً؛
إنها قفص مبطن بالثناء.

قالوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

هنا ظهر الأب بوصفه حجة. لم يقولوا: أثبتنا أن آلهتنا حق، بل قالوا: عبدها
آباؤنا.

تحولت الأسبقية الزمنية إلى برهان، وتحول الموروث من خبر يُفحص إلى
سلطة تمنع الفحص.

لكن القدم لا يمنح الباطل قداسة. فالخطأ إذا عاش ألف عام لا يشيخ حتى
يصير حقاً، وإنما يراكم فوقه طبقات من الألفة تجعل اكتشافه أصعب.

إن احترام الآباء لا يعني تأليه اختياراتهم. نعرف فضلهم، ونحفظ حقوقهم،
ونستفيد من تجاربهم، لكنهم بشر يخطئون ويصيبون. وأشد أشكال العقوق
الفكري لهم أن ننسب إليهم العصمة التي لم يدعوها، ثم نحمل أسماءهم
مسؤولية استمرار باطل ربما لو ظهر لهم الحق لرجعوا عنه.

الموروث الصالح جذور تمد الشجرة بالحياة، أما الموروث الفاسد فقد يكون
قيداً يربطها بأرض ماتت.

والتمييز بينهما يحتاج إلى ميزان يأتي من خارج ضغط العادة: الوحي.

شَكُّ يَدْعُو إِلَى الرَّيْبَةِ

قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

ليس كل شك طريقاً إلى المعرفة. هناك شك يسأل بتواضع، ويبحث عن الدليل، ويستعد لتغيير موقفه. وهذا قد يكون بدايةً إلى اليقين. وهناك شك يتحول إلى بيت يقيم فيه الإنسان حتى لا يضطر إلى اتخاذ قرار.

الشك الباحث يقول: أرني لأتبع.

والشك المريب يقول: سأظل أطلب المزيد كيلا أتبع.

كان قوم صالح لا يجهلون شخصية نبيهم، ولا يفتقرون إلى دعوة واضحة، ثم ستأتيهم الآية التي طلبوها؛ ومع ذلك لم يكن الشك عندهم فراغاً معرفياً محايِداً، بل ستاراً يغطي رغبةً في إبقاء الموروث على حاله.

إن بعض الناس لا يستخدم الشك لتوسيع المعرفة، بل لتعليق المسؤولية. ما دام يقول «لست متأكداً»، يتوهم أنه معفى من لوازم الحق. لكنه قد يكون متأكداً بما يكفي ليعرف، وغير راغب بما يكفي ليعترف.

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ؟

قال صالح: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

مرةً أخرى يصف النبي الوحي بأنه بينة ورحمة. فالحقيقة لا تأتي لتنتصر في جدل مجرد، بل لتنقذ الإنسان من ضلاله.

ثم يضع صالح موقعه بوضوح: ماذا أفعل إن كان الله قد أرسلني، ثم عصيته لأحفظ رجاءكم القديم في؟

(فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ).

قد ينصره قومه اجتماعيًا إن جاملهم، لكن من ينصره من الله؟ وقد يستعيد مكانته بينهم، لكنه يخسر مقامه عند ربه. وأي ربح يبقى إذا كان ثمنه هذه الخسارة؟

كل إنسان يحمل أمانةً يواجه لحظةً شبيهة: الناس يريدون منه موقفًا، والحق يريد موقفًا آخر. وقد يبدو إرضاء الناس هو الخيار الآمن؛ لأن غضبهم ظاهر قريب، أما الحساب فغيب مؤجل. لكن المؤمن يرى البعيد بعين الوحي، فيعلم أن الأمان الحقيقي ليس في كثرة من يرضون عنه، بل في ألا يقف بين يدي الله وقد عصاه ليشتري رضاهم.

(فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ).

كل نصيحة تبعدك عن الله، وإن جاءت في ثوب الحرص عليك، فهي دعوة إلى الخسارة.

قد يقول لك أحدهم: أحمي مستقبلك، وهو يطلب منك أن تبيع ضميرك.

ويقول: أراعي مصلحتك، وهو يقطع صلتك بالمبدأ الذي يمنح مصلحتك معناها.

ليس كل من يحاول أن يجنبك ألماً قريباً محسناً إليك؛ فقد يجنبك ثمن الاستقامة ويدفعك إلى خسارة أكبر.

هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ

ثم ظهرت الآية: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

أضيفت الناقة إلى الله إضافة تشريف، كما أضيفت الأرض إليه: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾، ﴿أَرْضِ اللَّهِ﴾.

إنها ليست ملكاً لفرد يستطيع الأقوياء أن يساوموه أو ينتزعوا حقه. وجودها مرتبط بأمر الله، وحققها في الماء والرعي ليس منحةً يتفضل بها الملاء، بل حدٌ وضعه المالك الحقيقي للأرض.

وهنا تحولت الآية من مشهد يراه الناس إلى امتحان يمس مصالحهم. كان يمكنهم أن يتأملوا الناقة من بعيد ويبدوا الإعجاب، لكن المطلوب أن يفسحوا لها نصيبها وألا يمسوها بسوء.

فالحقيقة تصبح ثقيلة حين تطلب مساحةً في الواقع.

كم يسهل أن نمدح العدل بوصفه فكرة، ثم نضيق به حين يأخذ نصيباً من أموالنا أو نفوذنا! ويسهل أن نتحدث عن حقوق الضعفاء، ثم نستثقل حضورهم حين يشاركوننا مورداً نريده لأنفسنا.

كانت الناقة آية، لكنها أيضاً اختباراً للأخلاق: هل يقبل المجتمع أن يكون في الأرض حق لا يحدده الأقوياء؟ وهل يسلم بأن المورد ليس حكرًا عليهم؟ وهل يحترم كائنًا لا ينتمي إلى ميزان مصالحهم لكنه يحمل أمر الله؟

(فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ).

الأرض لله، وهذه الحقيقة تهدم منطق الاحتكار من أصله. الإنسان مستخلف، لا مالك مطلق. يملك في حدود الشريعة، وينتفع، ويبنى، لكنه لا يستطيع أن يتصرف كأن وجود الآخرين خطأ في أرضه الخاصة.

كل ملك بشري مؤقت ومحكوم بأمانة. فقد كانت الأرض قبلنا، وستبقى بعدنا، وما نحن إلا عابرون مُنحوا حق الانتفاع ومسؤولية العدل.

عَقَرُوهَا

(فَعَقَرُوهَا).

كلمة واحدة تختصر انقلاب مجتمع على آية رآها.

لم يقل النص هنا إن فردًا منفصلاً ارتكب الجريمة وانتهى الأمر، بل نسب الفعل إليهم جميعًا؛ لأن الجريمة قد تنفذها يد واحدة، لكن مجتمعًا كاملاً يصنع

لها المناخ، أو يرضى بها، أو يحمي فاعلها، أو يصمت حين كان يستطيع الإنكار.

هناك من رفع أداة العقر.

وهناك من خطط.

وهناك من حرّض.

وهناك من صفّق.

وهناك من قال: لا شأن لي.

لكن حين تتصل الجريمة ببنية المجتمع ورضاه، يحمل الجميع نصيبهم من مسؤوليتها بحسب مواقفهم.

إن الشر الكبير نادرًا ما يعمل بيد واحدة. يحتاج إلى توزيع الأدوار حتى يشعر كل شخص أن حصته صغيرة لا تستحق المحاسبة. واحد يكتب التبرير، وآخر يصدر الأمر، وثالث ينفذ، ورابع يخفي الأثر، وخامس يطلب من المظلوم أن يصمت حفاظًا على الاستقرار.

وحين تكتمل الدائرة، يقول الجميع: لم أفعل شيئًا.

لكن الناقة تُعقر في النهاية بأيديهم جميعًا.

ذُبْحُ الْمَعْنَى قَبْلَ الْجَسَدِ

لم تبدأ جريمة ثمود يوم امتدت اليد إلى الناقة. لقد عُقرت قبل ذلك في الوعي.

عُقرت حين رأوا الآية عقبةً أمام مصلحتهم.

وعُقرت حين سلبوا عنها حرمتها، وحولوها في خطابهم من «ناقة الله» إلى عبء ينبغي التخلص منه.

وعُقرت حين أقنع بعضهم بعضاً أن بقاءها يهدد نظامهم.

وعُقرت حين صار الاعتداء عليها عملاً يمكن تخيله، ثم صار رأياً يُناقش، ثم صار خطة تُنفذ.

فالجرائم الكبرى تبدأ بتغيير الأسماء. لا يقول الظالم: سأظلم؛ بل يبحث عن اسم يجعل ظلمه مقبولاً. يسمى البطش أمناً، والاحتكار تنظيمًا، والخيانة واقعيةً، وإسكات المصلح حفظًا للوحدة.

فإذا مات المعنى في اللسان، سهل قتل الحقيقة في الواقع.

لقد كان جسد الناقة آخر ما عُقر. أما الآية فقد ذُبحت في قلوبهم حين قرروا أن مصالحهم أصدق من أمر الله.

وهذه قاعدة شديدة الخطر: لا يستطيع الإنسان أن يرتكب الشر العظيم دفعةً واحدة ما دامت فطرته يقظة. لذلك يبدأ بتخدير الضمير، وتبريد معنى

الجريمة، وصناعة لغةٍ تفصل الفعل عن حقيقته. فإذا تغيّرت اللغة، أصبح الانتقال إلى الفعل أقصر.

كان ينبغي لهم حين رأوا الناقة أن يسألوا: ماذا يريد الله منا؟

لكنهم سألوا: كيف نتخلص منها؟

وبين السؤالين انتقلوا من مقام الامتحان إلى موعد العذاب.

تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ

قال صالح بعد عقرها: (فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

ثلاثة أيام.

كان العذاب قد حُسم، لكن الزمن لم ينتهِ في اللحظة نفسها. ظلوا يأكلون ويشربون ويتحركون في البيوت التي نحتوها، غير أن كل ساعة كانت تنقص من مهلة معلومة.

ما أثقل أن يعيش الإنسان في دار يعرف موعد سقوطها!

كانت الأشياء من حولهم تؤدي وظائفها المعتادة: الشمس تشرق، والناس يتحدثون، والأبواب تُفتح، لكن المعنى تغير. لم تعد الأيام مستقبلاً، بل عدّاً تنازلياً.

إن الإنسان قد يظن أن استمرار النعم دليل على سلامته، مع أنها قد تستمر في اللحظات الأخيرة. البيت قائم، والصحة حاضرة، والمال في اليد، لكن القرار الأخلاقي الذي اتخذه الإنسان قد يكون قد وضعه على طريق لا يعرف مقدار ما بقي منه.

(ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

وعد الله لا يحتاج إلى ظهور مقدماته كي يكون حقًا. فقد لا يرى الإنسان في اليوم الأول شيئًا، ولا في الثاني، فيعود إليه وهم النجاة. لكن غياب العلامة لا يلغي الموعد.

الحق لا يتقدم في كل لحظة بضجيج.

أحيانًا يمشي قدر الله صامتًا، بينما يواصل الناس احتفالاتهم فوق أرض تنتهي للصيحة.

النَّجَاةُ مِنَ الْخِزْيِ

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ).

مرة أخرى: (بِرَحْمَةٍ مِنَّا).

إنها العبارة التي تعبر بالناجين في قصص السورة. تختلف صور الهلاك، لكن باب النجاة واحد: رحمة الله التي يدرك بها المؤمنون.

وَنَجَّاهُمْ مِنْ (خِزْيِ يَوْمِئِذٍ). فالعذاب لم يكن أَلَمًا جَسَدِيًّا فَقَطْ، بَلْ انْكَشَافًا مَهِينًا
لَزِيفِ الْقُوَّةِ. أُولَئِكَ الَّذِينَ نَحْتُوا الْجِبَالَ لِيَصْنَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَمْنًا طَوِيلًا، بَدَّوْا أَمَامَ
الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ عَاجِزِينَ عَنْ إِضَافَةِ لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى مَهْلَتِهِمْ.

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ).

كَانُوا أَقْوِيَاءَ، لَكِنْ قُوَّتُهُمْ عَارِيَةٌ مُسْتَعَارَةٌ.

أَمَّا اللَّهُ فَهُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي لَا يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنْ شَيْءٍ، الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى.

حِينَ يَنْسَى الْإِنْسَانُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْقُوَّةِ الْمَوْهُوبَةِ وَالْقُوَّةِ الْمَطْلُوقَةِ، يَظُنُّ أَنَّهُ نَدٌّ
لِلْقَدْرِ. فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ عَادَتْ الْأَشْيَاءُ إِلَى أَحْجَامِهَا الْحَقِيقِيَّةِ: الْحُضَارَةُ لَحْظَةً،
وَالْجِبَالُ خَلْقٌ، وَالْإِنْسَانُ عَبْدٌ.

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ

(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿١٠٠﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا
فِيهَا).

جَاءَتْهُمْ الصَّيْحَةُ.

الصَّوْتُ الَّذِي لَمْ يَصْغَوْا إِلَيْهِ فِي دَعْوَةِ صَالِحٍ عَادَ إِلَيْهِمْ فِي صُورَةٍ لَا
يَسْتَطِيعُونَ إِغْلَاقَ آذَانِهِمْ عَنْهَا. أَعْرَضُوا عَنْ كَلِمَةِ النِّجَاةِ، فَأَدْرَكَتْهُمْ صَيْحَةُ
النِّهَايَةِ.

(فِي دِيَارِهِمْ).

لم تنجهم البيوت المنحوتة في الصخر. المكان الذي صنعوه للحماية صار موضع جثومهم. كانت الجدران قائمة، لكن أصحابها انتهوا.

وهنا تتبدد خرافة الأمن المادي. ليس البيت آمناً بصلابة حجارته وحدها، وإنما بما يضع الله فيه من سكينة وحفظ. وقد يملك الإنسان جداراً لا تخترقه يد، ثم يدخل إليه الهلاك من حيث لا تُغلق نافذة.

(كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا).

كأنهم لم يقيموا، ولم يملؤوا الطرقات، ولم يرفعوا أصواتهم، ولم يتباهوا ببنيانهم. ابتلع الغياب كل ذلك الحضور.

ما أقصر الطريق بين «نحن هنا» و«كأن لم يكونوا هنا»!

ينفق الإنسان عمره في تثبيت اسمه على الأشياء، ثم تأتي أجيال لا تعرفه. والغفلة ليست في أن يبني؛ فالبناء من الاستخلاف، بل في أن يظن أن البناء يمنحه خلوداً.

لا يخلد الإنسان بما نحت في الجبل، بل بما أثبت في ميزان الله.

قد يبقى الحجر وتفنى قيمة صاحبه.

وقد يذهب الحجر ويبقى عمل صالح حياً في الناس.

أَلَّا بُعْدًا لِّثَمُودَ

(أَلَّا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعْدًا لِّثَمُودَ).

كما قيل في عاد، قيل في ثمود: (كَفَرُوا رَبَّهُمْ). يعود القرآن من تفاصيل الجريمة إلى أصلها. عقر الناقة لم يكن فعلاً منفصلاً، بل ثمرة انقطاع عن الربوبية. حين لم يعودوا يرون الأرض أرض الله، ولا الناقة ناقة الله، ولا القوة عطاءً من الله، صار الاعتداء ممكناً.

كل جريمة ضد الخلق تحمل في عمقها خللاً في معرفة الخالق.

من عرف أن الإنسان عبد لله لم يستبح كرامته.

ومن عرف أن المال مال الله لم يجعله أداةً لإذلال المحتاج.

ومن عرف أن الأرض أمانة لم يحولها إلى ساحة فساد.

ومن عرف أن القوة امتحان لم يستخدمها في سحق الضعفاء.

لقد أبعدت ثمود لا لأنها بنت، بل لأنها فصلت البناء عن العبودية. ولا لأنها كانت قوية، بل لأنها جعلت القوة حجاباً عن القوي العزيز. ولا لأنها ورثت الآباء، بل لأنها منحت ميراثهم سلطةً على الوحي.

النَّاقَةُ الَّتِي تَمْشِي فِي كُلِّ زَمَانٍ

ناقة صالح آية مخصصة بقومه، لكن معناها يعبر الأزمنة. ففي حياة المجتمعات حدود يضعها الله امتحاناً لضمائرهما: حق ضعيف، وحرمة بريء، ومال عام، وكلمة حق، وأمانة لا يملك صاحبها من يحميه.

قد يبدو الاعتداء على هذا الحق صغيراً أمام مصالح الأقوياء، لكنه يكون «ناقة» تكشف حقيقة المجتمع كله.

فإذا احترمها، أعلن أن القوة تقف عند حد الأخلاق.

وإذا عقرها، أعلن أن المصلحة عنده أعلى من المقدس.

ليس السؤال: هل في زماننا ناقة تخرج من الصخر؟

بل: ما الحقوق الواضحة التي نعرف حرمتها ثم نتواطأ على عقرها؟

قد تكون الناقة إنساناً ضعيفاً وقف أمام شبكة من المتنفذين.

وقد تكون الحقيقة التي يعرفها الجميع، لكن الاعتراف بها يهدد امتيازاتهم.

وقد تكون ثروة عامة يتقاسمها الأقوياء، ثم يسمون نهبها استحقاقاً.

وقد تكون كرامة إنسان توزع المسؤولون في إهانتته، حتى ضاع دمه بين صمتهم وتبريراتهم.

إن المجتمع لا يُختبر فقط في طريقة احتفاله بالشعائر، بل في موقفه من «الناقة» حين تمرّ في أرض مصالحه.

مِنْ نَحْتِ الصَّخْرِ إِلَى نَحْتِ الْإِنْسَانِ

كانت ثمود بارعةً في تشكيل الجبل، لكنها لم تسمح للوحي أن يشكلها. نحتت الصخر، وبقيت نفوسها صلبةً أمام الحق.

وهذا هو الفرق بين التقنية والتزكية. التقنية تمنح الإنسان قدرةً على تغيير العالم الخارجي، أما التزكية فتعلمه كيف يغير نفسه كيلا تفسده القدرة.

وكل تقدم في الأدوات لا يصاحبه تقدم في الضمير يضاعف الخطر. فالشرير الضعيف يؤدي في حدود ضعفه، أما الشرير الذي امتلك وسائل متطورة فيستطيع أن يجعل فسادَه واسعًا ومنظمًا.

إن أعظم مشروع عمراني ليس أن تتحت بيتًا في جبل، بل أن تتحت في النفس ممرًا يعبر منه النور.

أن تنتزع منها حجر الكبر.

وأن توسع فيها موضع الرحمة.

وأن تبني داخلها ميزانًا لا تميله المنفعة.

وأن تجعلها قادرةً على رؤية الآية قبل أن تتحول إلى عذاب.

لقد نجحت ثمود في صناعة مساكن تقاوم الزمن، وفشلت في صناعة إنسان يستحق السكن فيها. فبقيت الديار، وغاب أهلها: (كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا).

وهكذا نقول لنا القصة: لا تتخدع بصلابة البناء إذا كان الإنسان الذي في داخله يتصدع. فالسقوط لا يبدأ دائماً من الجدران؛ قد يبدأ من اللحظة التي يرى فيها المجتمع آية الله، ثم يرفع يده ليعقرها.

وحين تُذبح الآية في الضمير، تصبح الصيحة مسألة وقت.

الفصل السابع

إِبْرَاهِيمُ وَلُوطُ

قَلْبٌ يَسْتَقْبِلُ الْبَشَارَةَ وَقَلْبٌ يُوَاجِهُ الْإِنْهَارَ

تتغير نبرة السورة بعد مشاهد الطوفان والريح والصيحة. ندخل بيت إبراهيم عليه السلام، فنجد السكينة والضيافة والبشارة. لكن الملائكة الذين يحملون البشرى إلى بيت يحمل الطهر، يحملون في الرحلة نفسها العذاب إلى مجتمع اختار الانهيار.

إنها مفارقة شديدة الدلالة: الرسالة الآتية من السماء واحدة، لكن ما تحمله لكل قوم يتحدد بموقفهم من الله.

في بيت إبراهيم كانت بشارة.

وفي قرى لوط كانت نهاية.

النور نفسه يطمئن عينًا مفتوحة ويكشف عورة عين أغلقت نفسها. والمطر نفسه يحيي أرضًا ويغرق أخرى. ليست المشكلة في مجيء أمر الله، بل في الهيئة التي يجد الإنسان عليها حين يأتي.

ضَيْفٌ لَا يَأْكُلُ

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾.

بدأ اللقاء بالسلام.

﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾.

كلمات قليلة تفتح فضاء الأمان في البيت. فالسلام ليس تحيةً لفظيةً فحسب؛ إنه إعلان أن الداخل لا يحمل شرًّا، وأن العلاقة تبدأ من طمأنينة ورحمة.

ولم يلبث إبراهيم أن جاء بعجل حنيذ. لم يسألهم أولًا عن أسمائهم، ولا عن منزلتهم، ولا عن قدر ما يستحقونه من الضيافة. رأى ضيوفًا، فتحرك كرمه قبل أن تكتمل معرفته بهم.

﴿فَمَا لَبِثَ﴾.

في التعبير سرعة. فالكرم الصادق لا يطيل التردد حتى يبرد احتياج الضيف، ولا يحوّل العطاء إلى مسرح يعرض فيه صاحب البيت فضله.

وجاء بعجل، لا بقطعة قليلة منه، وكأن الخليل عليه السلام كان يكرم قبل أن يحسب. هذا كرم لا يخرج من فائض الطعام وحده، بل من سعة النفس.

إن بعض البيوت تكون غنية بما فيها، فقيرةً بمن يسكنها؛ تُغلق الأبواب خوفًا على النعمة من أن تنقص. وبيوت أخرى قد تكون أقل متاعًا، لكنها أوسع في الروح؛ يشعر الداخل إليها أنه لم يدخل مكانًا بل دخل صدرًا رحبًا.

والضيافة في قصة إبراهيم ليست هامشًا اجتماعيًا. إنها صورة لإيمان يرى القادم أمانةً من الله، ويحوّل النعمة إلى جسر بين القلوب.

فالمال الذي لا يصنع معروفًا يظل مادةً صامتة.

والطعام الذي لا يعبر منه الحب يشبع الجسد ولا يبني المجتمع.

لكن يد الضيوف لم تمتد إلى الطعام:

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَ لَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً).

لم يصرّح إبراهيم بخوفه، بل أوجسه في نفسه. فمن عادات الضيف أن يأكل، وامتناع هؤلاء حمل في السياق البشري علامةً مقلقة. إنهم دخلوا بيته وقبلوا ضيافته ظاهرًا، ثم لم يتناولوا منها.

لا يقدم القرآن إبراهيم في صورة إنسان منزوع الفطرة. خاف؛ لأن الخوف استجابة بشرية عند ظهور سبب مجهول. لكن النبوة تهذب الخوف ولا تلغي طبيعته.

الفرق ليس أن المؤمن لا يخاف، بل أنه لا يترك الخوف يقوده بعيدًا عن الله. قد يرتجف القلب لحظة، لكنه حين يأتيه البيان يعود إلى سكينته.

قالت الملائكة: (قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ).

زالت الريبة عن إبراهيم، لكن الجملة حملت خوفاً من نوع آخر. هؤلاء المرسلون ليسوا قادمين في زيارة عابرة؛ إنهم ذاهبون إلى قوم لوط.

وحين يعرف النبي ما تعنيه زيارة الملائكة لقوم استكملوا أسباب العذاب، لا يمر الخبر على قلبه بارداً.

ضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا

(وَأَمْرًا أَنَّهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ).

في البيت نفسه الذي سمع خبر العذاب المتجه إلى قرى لوط، انفتحت نافذة الحياة ببشارة إسحاق، ومن بعد إسحاق يعقوب.

كأن الوحي يضع الميلاد إلى جوار الهلاك، ليقول إن الله حين يطوي صفحة فساد يفتح في موضع آخر صفحة هداية. فالتاريخ لا يسير إلى الفراغ، والموت لا يملك المسرح كله.

كانت سارة قائمة، وقد تقدم بها العمر، وانقطعت وفق الأسباب المألوفة مرحلة الإنجاب. ثم جاءت البشري لا بولد فقط، بل بولد وراءه ولد: إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

إن كرم الله لا يقف دائماً عند حدود الطلب. قد يكون القلب قد تخلى عن أمنية قديمة حتى لم يعد يجرو على دعائها، ثم تأتيه الرحمة من طريق لم يعد ينتظره.

قالت: (يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ).

لم يكن تعجبها شكاً في قدرة الله، بل دهشة الفطرة أمام خروج الحدث عن المألوف. نظرت إلى نفسها: عجوز. ونظرت إلى زوجها: شيخ. وبين هذين السببين المنقطعين جاءت البشارة بحياة جديدة.

وهنا تعيد الملائكة توجيه النظر من ضعف السبب إلى سعة القدرة: (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ).
(أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ).

ما يكون عجباً في مقياس الأسباب ليس عجباً على خالق الأسباب. نحن نرتب الممكنات وفق ما رأيناه من قبل، فإذا جاء أمر خارج تجربتنا حسبناه بعيداً. لكن قدرة الله لا تستمد حدودها من ذاكرتنا.

إننا نعرف سنة من سنن الله، ثم نكاد نحولها إلى قيد على مشيئته. نعرف أن الولادة لها عمر مألوف، والزرع له موسم، والمرض له مسار، فننسى أن الذي أجرى السنن قادر على أن يخلق ما يشاء من حيث لا نحتسب.

لا يدعونا القرآن إلى إهمال القوانين، بل إلى ألا نؤلّها. نعمل وفقها؛ لأنها من تقدير الله، لكننا لا نقول إن خرائن الاحتمال انتهت عند ما نعرف.

(رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ).

الرحمة ليست حادثةً غريبةً عن هذا البيت؛ فقد أحاطته من قبل. والبركة تجعل عمراً متقدماً بدايةً لسلسلة من النبوات. فالسنوات التي يظنها الإنسان خاتمة قد يجعلها الله مقدمة.

لا تقل: فات الوقت، وأنت تخاطب رب الزمن.

ولا تقل: انتهت الأسباب، وأنت تسأل من خلقها.

قد تكون الأبواب التي تعرفها قد أغلقت، لكن أمر الله لا يدخل بالضرورة من الأبواب التي تعرفها.

إِبْرَاهِيمُ يُجَادِلُ فِي قَوْمِ لُوطٍ

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ).

ذهب الخوف، وجاء الفرح، لكن إبراهيم لم ينغلق داخل بشارته. كان يستطيع أن ينشغل بولده المنتظر، وبالمستقبل الذي فُتح في بيته، إلا أن قلبه اتجه إلى القوم المهددين بالعذاب.

هذا هو القلب النبوي: لا تجعله النعمة أنانيًا.

بعض الناس إذا نجا نسي الغارقين، وإذا بُشِّرَ انشغل ببشارته عن آلام العالم. أما إبراهيم، فقد اجتمع في قلبه فرح إسحاق والخوف على قوم لوط.

(يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ).

كان يرجو لهم فرصةً أخرى، أو يؤمل أن يكون فيهم من لم يستحق العذاب. لم تكن مجادلته اعتراضًا على عدل الله، بل أثرًا من آثار رحمته وحلمه.

لذلك أثنى الله عليه: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ).

حلیم؛ لا تستفزه إساءة الناس إلى طلب الانتقام السريع.

أَوَّاه؛ كثير التأوه من خشية الله والرحمة بعباده.

منيب؛ يعود إلى ربه في كل أمر.

اجتمعت فيه الرحمة والخشية والرجوع. فلم يكن حلمه ضعفًا، ولا رحمته ذوبًا للحق، ولا إنابته عزلةً عن مصير الناس.

إن الرحمة النبوية لا تنكر الجريمة، لكنها لا تفرح بالهلاك. تعرف أن العدل حق، ومع ذلك تتمنى لو اختار الظالم طريقًا يجنبه نهايته.

وحين يسقط الإنسان من قلب المصلح، يتحول الإصلاح إلى معركة انتقام. أما الأنبياء فيظلون يميزون بين كراهية الباطل والشفقة على الواقع فيه.

لكن الأمر كان قد بلغ نهايته: (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ).

للرحمة البشرية حد تقف عنده أمام العلم الإلهي. إبراهيم يرى بقلبه الرحيم، والله يرى السرائر والتاريخ والفرص التي أهدرت والحد الذي بلغه الفساد.
(قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ).

انتهى زمن المراجعة، ولم يعد العذاب احتمالاً يمكن دفعه.

وهنا يتعلم الداعية أن الرحمة لا تعني إلغاء الحدود، وأن الحلم لا يعني منح الشر حقاً أبدياً في افتراس الناس. فإذا أصبح الفساد عدواناً منظماً يهدد الفطرة، وصار المفسدون لا يقبلون إصلاحاً ولا يتركون للخير موضعاً، جاء العدل ليوقف امتدادهم.

لُوطٌ فِي مَدِينَةٍ فَقَدَتِ الْحَيَاءَ

وصلت الملائكة إلى لوط عليه السلام: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ).

في بيت إبراهيم استقبل الضيوف بعجل حنيذ، وفي مدينة لوط أصبح حضور الضيف الجميل مصدر خوف على كرامته وأمنه.

المسافة بين المجتمعين ليست في شكل البيوت، بل في الأخلاق التي تسكنها.

كان لوط يعرف قومه، ويعرف ما قد يفعلونه إذا علموا بالضيوف. لذلك ساءه مجيئهم وضاق بهم ذرعاً، لا كراهيةً لهم، بل عجزاً عن حمايتهم من مجتمع جعل الفاحشة ثقافة عامة.

(هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ).

لم يكن عصيباً لأن لوطاً خاف على نفسه، بل لأنه حمل أمانة الضيف في مدينة لا تحترم الأمانة. والمصلح يتألم أحياناً لا لأن الشر أصابه شخصياً، بل لأنه يرى نفسه مسؤولاً عن حماية قيمة لا يملك لها قوة كافية.

إن أقسى ما يواجهه صاحب الفطرة السليمة أن يعيش في مجتمع لا يكتفي بفعل المنكر، بل يطارده إلى بيته. لا يسمح له أن يعتزل فسادهم، ولا يكتفي بأن يختاروا لأنفسهم السقوط، بل يريدون أن يقتحموا عليه آخر مساحة للطهر.

كان بيت لوط آخر حصن أخلاقي في المدينة، ولهذا اتجهت إليه الجموع.

فالفساد حين يستحكم لا يرضى بوجود شاهدٍ طاهر؛ لأن الطاهر، ولو صمت، يذكره بأن ما يفعله ليس قدرًا طبيعيًا. وجود إنسان واحد يرفض الانحراف يفسد على الجماعة وهم الإجماع.

لذلك لا يريد المجتمع الفاسد من الصالح أن يتركه وشأنه فقط؛ يريد منه أن يوافق، أو يصمت صمت الراضي، أو يغادر المشهد. فالاستقامة إدانة صامتة للانحراف.

يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ

(وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ).

(يُهْرَعُونَ)؛ يسرعون مدفوعين بشهوة فقدت سلطان العقل والحياء. لم يأت فرد متخفٍ يستحي من فعله، بل جاء قومه في حركة جماعية.

وهنا تبلغ الكارثة الأخلاقية طورها الأخطر: حين يخرج المنكر من السر إلى العلن، ثم يتحول من خطيئة يخجل منها صاحبها إلى هوية تتجمع حولها الجموع.

(وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ).

لم يبدأ الانهيار في ذلك اليوم؛ لذلك قال لوط: (هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)، ولم يقل: هذا فساد جديد. لقد كانت السيئات ممارسةً سابقةً متكررة، حتى صنعت فيهم جراً جماعية.

فالذنوب لا تبقى في حجمها الأول. التكرار يغيّر علاقتها بالقلب:

تبدأ خاطراً يدفعه الإنسان.

ثم فعلاً يخفيه.

ثم عادةً يبررها.

ثم إعلاناً يفاخر به.

ثم سلطةً تطارد من يرفضه.

وهكذا لا يكفي المنكر بأن يحتل السلوك؛ يريد أن يعيد تعريف اللغة، حتى يفقد الناس القدرة على تسميته منكرًا.

كان قوم لوط قد بلغوا مرحلةً لم يعودوا فيها يشعرون أن بيت الرجل له حرمة، ولا أن للضيف حقًا، ولا أن الشهوة تقف عند حد. وعندما تفقد الشهوة حدودها لا تعود لذةً عابرة، بل تتحول إلى طغيان.

فليست الحرية أن تفعل النفس كل ما تريد؛ لأن النفس إذا لم تُهذب رغبت اليوم في شيء وغداً في كسر كل حاجز أمامه. الحرية الحقيقية أن يملك الإنسان شهوته، لا أن تملكه.

أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ؟

واجه لوط قومه بما بقي لديه من حبة الفطرة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

أرشدهم إلى الطريق الطاهر المشروع الذي أباحه الله، فليس الدين حرباً على الفطرة أو رغبة الجسد، بل تهذيب لها ووضعها في المسار الذي يحفظ الإنسان والأسرة والمجتمع.

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

فالطهر لا يقتل الحياة، بل يحميها من التحول إلى افتراس. والزواج لا يحبس الغريزة، بل يمنحها بيتًا أخلاقيًا تصبح فيه مودةً ومسؤوليةً ونسلاً.

ثم قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أعاد الشهوة إلى موضعها تحت رقابة الله. فالإنسان لا يصبح حرًا حين يخلع كل قيد، بل قد يصبح عبدًا لأشد سادته قسوة: الرغبة التي لا تشبع.

﴿وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي﴾.

استنهض فيهم بقايا المروءة: إن لم تستجيبوا لنداء التقوى، فتذكروا حرمة الضيف. لكن الفساد كان قد أكل الدين والمروءة معًا.

فصرخ السؤال: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ؟﴾.

لم يسأل: أليس منكم رجل قوي؟ فقد كانوا كثيرين قادرين على الاقتحام. لكنه بحث عن الرشيد.

القوة بلا رشد هي التي صنعت الأزمة.

والعدد بلا رشد تحول إلى قطيع يندفع نحو الجريمة.

كان يحتاج رجلًا واحدًا يعترض حركة الجماعة، ويقول: كفى. فرب رجل رشيد يوقف مدينةً عند حافة السقوط، إذا امتلك شجاعة أن يخرج من أسر الجمهور.

لكن السؤال جاء بلا جواب.

كان فيهم رجال من حيث الأجساد، ولم يكن بينهم رجلٌ يقوم بوظيفة الرشد.

وهنا يُقاس موت المجتمع: لا حين يخلو من الصالحين تمامًا، بل حين يعجز الصالحون فيه عن تكوين قوة أخلاقية تحجز المنكر. وقد يعرف بعض الناس في سرهم أن الفعل قبيح، لكنهم يختبئون خلف الكثرة، فيصبح صمتهم جزءًا من الجريمة.

الرشد ليس معرفة الصواب فقط؛ إنه امتلاك الشجاعة للوقوف معه.

لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ

قالوا: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

لم يتظاهروا بسوء الفهم. قالوا بوضوح: تعلم ما نريد.

إنهم لا يطلبون طريقًا إلى إشباع حاجة فطرية، فقد عُرض عليهم الطريق الطاهر، وإنما يريدون الانحراف نفسه. وحين يتعلق القلب بصورة المعصية لا يعود يبحث عن الحاجة، بل عن التمرد الذي تحمله المعصية.

وقد يستعبد الإنسان الحرام لا لأنه الطريق الوحيد إلى اللذة، بل لأن في اقتحام الحد نشوة مرضية توهمه بأنه لا يخضع لسلطان.

ولهذا لا تعالج الفواحش بتوفير البديل المادي وحده؛ لا بد من معالجة القلب الذي أصبح يحب تجاوز الحدود، والعقل الذي صنع للتمرد فلسفة، والمجتمع الذي منح الجريمة شعورًا بالأمان.

قالوا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

في الجملة تهديد واضح: لا تكثر من الوعظ، فنحن لا نفتقد المعلومات. لقد اخترنا، وجئنا ننفذ اختيارنا.

وهنا وصل لوط إلى قمة الضيق: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

تمنى قوةً مادية تمنعهم، أو عشيرةً تحمي بيته. لم يكن في ذلك ضعف يقين، بل تعبير عن ضغط اللحظة؛ فهو نبي مسؤول عن ضيوفه، ويرى الجموع على الباب، ولا يرى في ظاهر الأسباب ما يردهم.

إن المؤمن قد يعرف أن الله معه، ثم يتمنى سببًا أرضيًا يؤدي به واجبه. فالإيمان لا يلغي الحاجة إلى القوة، ولا يجعل العجز فضيلةً في ذاته.

كان لوط يريد قوةً تحمي الحق، لا قوةً يتعالى بها.

والقوة حين تكون خادمةً للطهر رحمة. فالقيم التي لا يساندها مجتمع رشيد وقانون عادل قد تبقى عرضةً لعدوان من لا يفهمون إلا لغة الردع.

لكن لوطًا لم يكن يعلم أن الركن الشديد أقرب إليه مما يتصور.

لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ

قالت الملائكة: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

في لحظةٍ واحدةٍ تغيّر المشهد.

الذين ظنهم لوط ضيقاً يحتاجون إلى حمايته كانوا رسل الله القادمين لحمايته.
كان يحمل همّهم، بينما كانوا يحملون أمر نجاته.

وكم من أمر يدخل حياة الإنسان فيظنه عبئاً يحتاج إلى أن يدافع عنه، ثم
يكشف أنه كان يحمل له باب الخلاص!

نحن نحكم على الأشياء في أول ظهورها، والله يعلم الوظيفة التي ستؤديها في
نهاية الطريق.

﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

ليس لأن الجموع تراجعت من تلقاء نفسها، بل لأن حدّاً وضعه الله. كانوا على
الباب، وكانت نياتهم مشتتة، لكن القدرة البشرية مهما اندفعت تقف عند
الموضع الذي يقول الله عنده: لن يصلوا.

قد يقترب الشر كثيراً حتى يظن المؤمن أن المسافة انتهت، ثم يظهر الحفظ
في آخر خطوة. وليس تأخر ظهور الحماية دليلاً على غيابها؛ فقد كان الله
يحفظ لوطاً حتى في اللحظة التي قال فيها: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾.

السُّرَى فِي قِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ

قالت الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

النجاة هنا ليست سفينةً تُبنى، بل خروج في الليل.

تختلف صورة النجاة بحسب الأمر، لكنها دائماً تحتاج إلى استجابة. نوح قيل له: اصنع الفلك. ولوط قيل له: أسر بأهلك.

ثمة أوقات تكون فيها البطولة أن تبقى وتبني، وأوقات تكون فيها النجاة أن تغادر. والحكمة ليست في تقديس البقاء أو الرحيل، بل في معرفة ما يأمر الله به في اللحظة.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

لا تلتفتوا إلى المدينة التي تركتموها، ولا إلى الممتلكات والذكريات والبيوت. فالالتفات قد يكون حركة عين، وقد يكون تعلق قلب. ومن خرج بجسده وبقي قلبه خلفه، ظل جزء منه في موضع الهلاك.

إن النجاة من البيئة الفاسدة لا تكتمل دائماً بتغيير المكان؛ يجب أن يخرج الفساد من الداخل أيضاً. قد يغادر الإنسان عادةً سيئة وهو لا يزال يحن إليها، أو يترك جماعةً ظالمة وهو لا يزال يتمنى مكانته القديمة فيها. يبتعد خطوة، ثم يعيده الالتفات.

الطريق إلى الفجر يحتاج عيناً متجهةً إلى الأمام.

(إِلَّا أَمْرًا تَكُ).

كانت في بيت نبي، لكنها لم تكن من أهله في رابطة الإيمان. وهنا يتكرر الدرس الذي رأيناه في ابن نوح: القرب المكاني والزوجي لا يصنع وحدة المصير إذا انفصل القلب عن العقيدة.

بيت النبوة لا يمنح حصانةً لمن خان رسالته.

فقد يحيط النور بإنسان من كل جهة، لكنه يختار أن يدير ظهره إليه. وليس أشد حرماناً ممن عاش قريباً من الهدى حتى صار قيام الحجة عليه أوضح، ثم أثر الولاء لمجتمع الفساد.

(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ).

كان الليل ثقيلاً على لوط، فجاءت الجملة التي تعبر كل ليالي المؤمنين:

(أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ).

بلى، الصبح قريب، وإن بدا الليل طويلاً.

قريب لا بمقدار استعجالنا، بل بصدق وعد الله.

حين يصل الضيق إلى منتهاه، وقد لا يرى الإنسان سوى قطعة الليل التي تحيط به، يكون الفجر قد بدأ رحلته في جهة لا يراها.

لا تطلب من الليل أن يتحول إلى نهار قبل مواعده، لكن لا تسمح له أن يقنعك بأنه أبدي.

سر.

لا تلتفت.

فالصبح قريب.

حِينَ انْقَلَبَ الْبُنْيَانُ

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿١٠١﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.
﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

انقلب المكان كما انقلبت الفطرة. لقد جعل القوم المنكر معروفًا، والطهر تهمةً، والشهوة قانونًا، والغريب الطاهر موضع مطاردة؛ فجاء الجزاء بصورة انقلاب شامل.

حين تنقلب الموازين داخل المجتمع، قد يبقى البناء قائمًا مدةً، لكنه يكون قد بدأ السقوط من داخله. فالمدينة لا تكون مستقيمةً لأن شوارعها منظمة، بل لأن الإنسان فيها يعرف الأعلى والأدنى، والحق والباطل، والحرية والعدوان.

لقد أرادوا عالمًا بلا حدود، فجاءتهم الحجارة ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ محددة معلومة، لا تتحرك في فوضى. كل شيء في العذاب منضبط بعلم الله وعدله.

ثم يأتي التحذير الذي يخرج القصة من زمن لوط إلى كل زمن:

(وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

لم يقل: وما هي من قوم لوط ببعيد، بل قال: (مِنَ الظَّالِمِينَ). فالعبرة مرتبطة بوصف الظلم، لا باسم القوم وحده.

من حمل معنى ظلمهم، دخل في مجال التحذير، وإن اختلفت المدينة واللغة والزمان.

ولا يعني ذلك أن كل عقوبة تتكرر بالصورة نفسها، فالله يحكم بما يشاء؛ ولكن السنة قائمة: أن الظلم لا يتحول إلى حق بطول ممارسته، وأن المجتمع الذي يطارد الطهر ويؤسس للعدوان يحمل أسباب فناءه في داخله.

بَيْتَانِ وَمَصِيرَانِ

بدأ الفصل ببیت إبراهيم وانتهى ببیت لوط.

بیت إبراهيم استقبل الضيف بالسلام والطعام، فدخلته البشارة.

وبیت لوط أراد المجتمع اقتحامه بالشهوة والعدوان، فصار الحد الفاصل بين النجاة والهلاك.

في البيت الأول امرأة تتعجب من ولادة الحياة.

وفي المشهد الثاني امرأة اختارت أن يكون قلبها مع المدينة الهالكة.

في الأول: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

وفي الثاني: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

فليست الجدران هي التي تصنع أهل البيت، بل القيم التي يجتمعون عليها.

قد يكون البيت صغيراً، لكنه يحمل الرحمة إلى أجيال.

وقد تكون المدينة واسعة، لكنها تضيق بإنسان رشيد.

وقد يتأخر الولد في بيت طاهر، ثم يأتي حاملاً مستقبل نبوة.

وقد تكثر الجموع في مجتمع فاسد، ثم لا يوجد بينها رجل واحد يقول: كفى.

إن البركة لا تُقاس بعدد الساكنين، بل بنوع المعنى الذي يسكنهم.

وقصة إبراهيم ولوط تضع أمامنا حقيقتين متجاورتين:

قد يأتي أمر الله إلى المستحيل فيفتحه، كما فتح باب الولادة للشيخين
الكبيرين.

وقد يأتي إلى الباطل المستحكم فيطويه، كما جعل عالي القرية سافلها.

فلا تيأس أمام باب خير أغلقته الأسباب؛ فقد تدخل منه البشارة.

ولا تأمن لباطل طال بقاؤه؛ فقد يكون الصبح موعد نهايته.

إن رب البشارة هو رب العذاب، وحكمته تضع كلاً منهما في موضعه. يفتح الحياة حيث بقي الطهر، ويوقف الفساد حين يصبح عدواناً لا يدع للحياة الطاهرة موضعاً.

وبين بيت إبراهيم ومدينة لوط تسأل السورة قارئها: إذا جاءت رسل الله إلى عالمك، فماذا تجد؟

بيتاً يفتح بابه للسلام؟

أم مدينةً تهرع إلى انتهاك الحرمات؟

إن الجواب لا يحدد صورة حياتك وحدها، بل يحدد نوع الأمر الذي تستقبله من السماء.

الفصل الثامن

شُعَيْبٌ وَمَدْيَنُ

حين يفسد الميزان وتتحول السوق إلى عقيدة

بعد أن كشفت قصة لوط فساد الشهوة حين تخرج من حدود الفطرة، تنقلنا السورة إلى مدين، حيث يظهر فسادٌ من نوع آخر: فساد المال والميزان والسوق.

فالإنسان لا يُمتحن في شهوات الجسد وحدها، بل يُمتحن أيضًا حين يقف بين يديه المال، ويصبح قادرًا على أن يأخذ أكثر مما يستحق، أو أن يمنح الآخرين أقل من حقوقهم.

قد تستقيم الشعائر في ظاهر المجتمع، بينما تنحرف الموازين في أسواقه. وقد يكثر الحديث عن الله، ثم لا يظهر أثر الإيمان عند الوزن والحساب والعقود والديون وأجور العمال.

وهنا جاء شعيب عليه السلام ليعلن أن العقيدة التي لا تدخل السوق لم تدخل الحياة كاملة.

قال تعالى: ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

بدأ بالتوحيد، ثم انتقل مباشرةً إلى المكيال والميزان. ليس في الخطاب فجوة بين المحراب والسوق؛ لأن الذي يُعبد في الصلاة هو الذي يأمر بالعدل في المعاملة.

إن فصل الاقتصاد عن العقيدة ليس حيادًا، بل منح للسوق حقًا في صناعة حلاله وحرامه بعيدًا عن الله. وحين يصبح الربح هو المرجع الأعلى، تتحول الأرقام إلى أوثان، ويصبح كل ما يزيدها مقبولا ولو نقصت بسببه كرامة الإنسان.

قال شعيب: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾.

كأن صدق العبادة يُمتحن عند حقوق الناس. فمن سجد لله ثم قام من سجوده لبيخس خلقه، فقد بقي معنى السجود بعيدًا عن معاملته.

إن الجبهة حين تلامس الأرض تعلن أن صاحبها عبدٌ لله، فلا يصح أن ينهض بعدها ليتصرف كربٍّ صغير في أرزاق الآخرين.

إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ

قال شعيب: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾.

كانوا في سعة من الرزق، ولم يكونوا مضطرين إلى التطفيف لسد رمقهم. وهذا يجعل جريمتهم أشد؛ فقد خانوا الميزان لا لأنهم على حافة الهلاك، بل لأن الطمع أقنعهم بأن الكثير لا يكفي.

الفقر قد يدفع صاحبه إلى الخطأ تحت ضغط الحاجة، وإن لم يكن ذلك مبررًا للحرام. أما أن يسرق الغني حق الضعيف وهو يعيش في خير، فذلك فقر من نوع آخر: فقر النفس التي لا يشبعها الامتلاء.

﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾.

أراكم في نعمة، فاحذروا أن تجعلوا النعمة أداة لمعصية المنعم. وأراكم قادرين على العدل، فلا تتخذوا الحاجة عذرًا. وأراكم تملكون ما يكفيكم، لكنكم تريدون أن تكبر حصتكم بتصغير حصص الآخرين.

إن الطمع لا يسأل: كم عندك؟ بل يهمس: كم عند غيرك ويمكن أن يصير عندك؟

ولهذا قد يكون أشد الناس شعورًا بالفقر أكثرهم امتلاكًا؛ لأن فقره ليس في الخزانة، بل في التصور. يرى كل مال لم يدخل يده خسارة، وكل حق يؤديه نقصًا، وكل شريك في الرزق منافسًا.

كان أهل مدين بخير، لكنهم لم يكونوا بخير في داخلهم. فالرخاء الخارجي إذا لم تصحبه قناعة يتحول إلى نار؛ كلما أُلقي فيها المزيد قالت: هل من مزيد؟

عَذَابُ يَوْمٍ مُحِيطٍ

قال شعيب: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾.

هم ينقصون حقوق الناس جزءًا جزءًا، لكنه يرى عذابًا يحيط بهم من كل جهة. كانوا يظنون أن كل صفقة ظالمة تنتهي حين يغادر المشتري السوق، وأن النقص القليل يذوب في حركة التجارة، لكن الحقوق لا تتبخر.

قد يغادر المظلوم المكان ولا يغادر حقه كتاب الله.

وقد ينسى المحتال عدد المرات التي غش فيها، لكن الميزان الذي لا يضل يحتفظ بالتفاصيل.

وكانوا يقتطعون من كل إنسان شيئًا صغيرًا، حتى تجمعت الأجزاء في ظلم كبير يحيط بالمجتمع. فالفساد الاقتصادي لا يبقى بين البائع والمشتري؛ إنه يتسع حتى يهدم الثقة العامة، ويجعل كل إنسان يخشى الآخر، ويحوّل السوق من ساحة تعاون إلى غابةٍ يتربص فيها القوي بالضعيف.

حين يفسد الميزان، لا تنقص السلعة وحدها؛ ينقص الأمان.

وحين يصبح الغش عادة، لا يخسر فرد بضعة دراهم فقط؛ يخسر المجتمع قدرته على تصديق نفسه.

وهذا هو العذاب الذي يبدأ قبل العذاب: أن يعيش الناس في شبكة من الشك، لا يثق العامل بصاحب العمل، ولا المشتري بالبائع، ولا المواطن بالمؤسسة، ولا الضعيف بالقانون.

مجتمع كامل يضع يده على جيبه، لأنه يتوقع أن تمتد إليه يد أخرى.

أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

عاد شعيب يؤكد القضية: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

لم يقل: لا تسرقوا الناس أموالهم فقط، بل قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾. إنها عبارة واسعة تتجاوز السوق المادية إلى كل حق للإنسان. لا تبخسه ماله، ولا جهده، ولا مكانته المستحقة، ولا فكرته، ولا كرامته، ولا فضله.

قد يدفع صاحب العمل الأجر، لكنه يبخس العامل احترامه.

وقد يذكر الكاتب فكرة أخذها من غيره، ثم يبخس صاحبها حق النسبة.

وقد ينتفع القائد بتوضيحات من حوله، ثم حين يأتي وقت الاعتراف يختصر التاريخ في اسمه.

وقد يختلف إنسان مع آخر، فيبخسه كل فضيلة لأنه رفض بعض رأيه.

البخس ليس أن تأخذ الشيء كله دائماً؛ قد تترك للإنسان جزءاً من حقه ثم تنقصه عمداً. ولهذا كان أخفى من السرقة وأوسع انتشاراً. فالناس ينفرون من اسم السارق، لكن كثيراً منهم يمارسون البخس في صور اجتماعية لا تستفز الضمير بالوضوح نفسه.

وقد يُبخس الإنسان لأنه ضعيف لا يستطيع المطالبة، أو غريب لا يملك سنداً، أو فقير لا يصل صوته، أو مخالف يسهل تجريده من فضله.

لكن الله قال: (النَّاسَ).

لم يقل: الذين تحبونهم، ولا أهل جماعتكم، ولا من يملكون رد الأذى. إنسانية الإنسان وحدها كافية لكيلا يُبخس.

العدل لا يسأل عن درجة قرب صاحب الحق منك قبل أن يعطيه حقه.

الْمِيزَانُ أَكْبَرُ مِنْ آلَةٍ

المكيال والميزان في السوق أدوات محسوسة، لكن وراءهما ميزاناً معنوياً يقوم عليه الاجتماع الإنساني كله.

هناك ميزان في الحكم على الأشخاص.

وميزان في توزيع الفرص.

وميزان في رواية التاريخ.

وميزان في الثواب والعقاب.

وميزان في النظر إلى خطأ القريب وخطأ الخصم.

قد يملك المجتمع موازين تجارية دقيقة، لكنه يستخدم مكيالين في الأخلاق: مكيالاً يغفر به لمن ينتمي إليه، ومكيالاً يضاعف به خطأ من يخالفه.

إذا فعل الحليف الخطأ بحثوا له عن السياق والضرورة وحسن النية، وإذا وقع فيه الخصم نزعوا عنه كل عذر وجعلوه دليلاً على فساد طبيعته كلها.

وهذا تطفيف في ميزان المعنى.

ومن أخطر صور الفساد أن تتغير قيمة الفعل بتغير اسم فاعله. فالظلم ظلم ولو صدر ممن نحب، والعدل عدل ولو جاء ممن نختلف معه.

لا يستقيم ميزان الأمة حتى تزن نفسها بالميزان الذي تزن به خصومها.

قال شعيب: (بِالْقِسْطِ)؛ أي بالعدل. فالوفاء ليس زيادةً يتفضل بها التاجر، بل قسط واجب. أنت لا تُكرم الإنسان حين تمنحه حقه؛ إنما تخرج من عهده.

ومن الخلل أن يتحول أداء الواجب إلى منّة. يعطي المسؤول المواطن حقه ثم يطلب منه الشكر كأنه تبرع من ماله الخاص، ويمنح القائد العامل اعترافاً يسيراً ثم يذكره به طويلاً.

العدل ليس هبة من القوي للضعيف، بل حدّ الله على القوي والضعيف معاً.

وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

لم يعد التطفيف في الآية خطيئة فردية داخل السوق؛ صار عثوا في الأرض. فالفساد الاقتصادي يتكاثر. المال المأخوذ ظلماً لا يتوقف عند يد أخذه، بل يعيد ترتيب النفوذ. يصبح الغشاش أقوى، والصادق أضعف، ثم يجد الصادق نفسه معاقباً على أمانته؛ لأن السوق الفاسدة تمنح ميزة لمن يخالف قواعدها. عندئذ لا يعود الغش سلوكاً لشخص، بل يصبح نظاماً يدفع الناس إلى تقليده. يقول التاجر الأمين: إن لم أفعل مثلهم خرجت من السوق. ويقول الموظف النزيه: إن لم آخذ كما يأخذون بقيت عاجزاً. وهكذا تتحول الخطيئة من اختيار مذموم إلى «ضرورة» يصنعها الجميع ثم يعتذرون بها.

لكن الضرورة التي صنعها فسادنا لا تحول الحرام إلى فضيلة.

إن مقاومة الفساد تبدأ أحياناً بإنسان يقبل أن يدفع ثمن أمانته، لكي يثبت أن الإنسان ليس مضطراً إلى بيع ضميره لمجرد أن السوق تعرض سعراً مرتفعاً.

بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ

قال شعيب: (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ).

ما يبقيه الله لكم بعد أداء الحقوق خيرٌ من الزيادة التي تجمعونها بالظلم.

هذه الجملة تعيد تعريف الربح. ليس الربح هو الرقم الأكبر في نهاية الصفقة، بل المال الذي بقي لك دون أن يحمل معه مظلمةً تطاردك.

قد يكون القليل الحلال أوسع في الحياة من الكثير الحرام؛ لأن البركة لا تُقاس بالكم. مال قليل ينام صاحبه آمن القلب، خير من مال كثير يقيم حوله حراساً ويبقي الخوف داخله.

الحلال يبني مع المال سكينة.

والحرام قد يبني مع المال سجنًا.

(بَقِيتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ).

ما أعظم أن يطمئن التاجر والعامل وصاحب السلطة إلى هذه القاعدة! أدّ الحق ولا تخف من الجزء الذي خرج من يدك. فما دفعته طاعةً لم يضع، وما بقي بإذن الله يحمل خيرًا قد لا تحمله أضعافه.

أما الزيادة المحرمة فهي نقصان مؤجل. قد تزيد الرصيد وتُنقص البركة، وتوسع البيت وتضيّق الصدر، وترفع المكانة وتهدم الثقة.

ثم قال شعيب: (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ).

لقد بلّغهم، لكنه لا يملك أن يقف خلف كل ميزان ليراقبه. فالمجتمع لا يستقيم برقابة الخارج وحدها. يمكن للسلطة أن تضع القوانين والمفتشين، لكن المحتال سيبحث عن لحظة لا تراه فيها العين.

الرقابة الأعمق هي أن يحمل الإنسان ميزانه داخل قلبه؛ يعلم أن الله يراه حين يقدر على الغش ولا يراه أحد.

إذا غاب الضمير، تحولت الأنظمة إلى لعبة يتنافس الناس في اكتشاف ثغراتها. وإذا حضر الإيمان، استقام الإنسان في الموضع الذي يستطيع فيه أن يظلم دون عقوبة أرضية.

أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ؟

قالوا ساخرين: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

لقد أدركوا الصلة التي أراد شعيب إقامتها بين الصلاة والسوق، لكنهم أنكروها: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ؟﴾.

كأنهم يقولون: ما شأن الصلاة بأموالنا؟ دع العبادة في محرابها، واترك السوق لأصحابها.

وهذا هو التدين الذي يقبله الفساد: صلاة لا تأمر، وشعائر لا تراجع المصالح، وعبادة لا تسأل عن مصدر المال وطريقة إنفاقه.

ما دامت الصلاة حركةً فردية لا تزعج الظالم، قد يتركها له وربما يشجعه عليها. لكنه يعترض حين تتحول إلى ضمير يقول: لا تبخسوا الناس أشياءهم.

إن الصلاة التي لا تمنع صاحبها من الظلم لم تبلغ غايتها في نفسه. فقد وقف بين يدي الله مرات، لكنه حين وقف أمام المال نسي من كان ينجيه.

قالوا: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾.

هذه هي عقيدة الملكية المطلقة: مالي، إذن أفعل به ما أشاء.

لكن الإسلام يقر الملكية ولا يؤلّها. المال لك من جهة الاستخلاف والحق المشروع، لكنه مال الله من جهة الخلق والملك الأعلى. لذلك لا تملك أن تجمع به بأي طريق، ولا أن تنفقه في أي وجه، ولا أن تستعمله لإفساد حياة الآخرين.

الملكية تمنحك حق التصرف داخل حدود العدل، لا حق صناعة حدودك الخاصة.

ليس السؤال: هل المال في حسابك؟

بل: كيف دخل إليه؟ وأي حقوق تعلقت به؟ وفي أي طريق يخرج؟

فالإنسان قد يمتلك الورقة قانونيًا، ويكون في داخلها عرق عامل لم يؤدّ حقه، أو حاجة فقير احتكر عنه الطعام، أو مال عام جرى تحويله بحيلة إلى ملك خاص.

ثم قالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

ظاهرها مدح، لكن السياق يحمل السخرية: أنت الحليم الرشيد الذي يريد أن يتدخل في أموالنا!

حين يعجز الباطل عن مواجهة الفكرة، يحوّل صاحبها إلى نكتة. والسخرية هنا محاولة لعزل شعيب نفسيًا: كنا نظنك عاقلًا، فكيف تجعل الصلاة مرجعًا للاقتصاد؟

لكن المشكلة لم تكن في عقل شعيب، بل في مفهومهم عن العقل. كانوا يرون الذكاء قدرةً على تعظيم الربح، ولو كان على حساب الحق. أما شعيب فكان يرى أن العقل الذي يربح لحظةً ويخسر الآخرة ليس رشدًا، وأن الصفقة التي تهدم المجتمع لا تصبح ناجحةً لأن صاحبها خرج منها بمال أكثر.

إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

قال شعيب: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُريدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

هذه الآية ميثاق للمصلحين.

بدأ بالبينة، فلا إصلاح بلا مرجع يميز الإصلاح من الفساد. ثم ذكر الرزق الحسن، ليبين أنه لا يحارب المال ولا السوق، وإنما يريد رزقًا طيبًا لا يحمل سمّ المظالم.

ثم أعلن وحدة القول والعمل: (وَمَا أُريدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ).

لا أنهاكم عن التطفيف ثم أبحث لنفسي عن مكيال خاص. ولا أطالبكم بالعدل ثم أستثني مصالحي. فالمصلح الذي لا يمر خطابه عبر حياته يهدم بفعله ما يبنيه بكلامه.

لا شيء يفتك بالدعوة مثل أن يكتشف الناس أن صاحبها يطالبهم بثمن لا يدفعه.

قد تكون عبارته صحيحة، لكن تناقضه يمنح الباطل فرصةً للهرب من العبارة إلى الشخص. ولذلك كان صدق القدوة جزءاً من قوة الحجة.

ثم قال: (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ).

لم يرد التشهير بقومه، ولا تحطيم مجتمعهم، ولا إثبات تفوقه الأخلاقي عليهم. كان يريد أن يصلح الخلل قبل أن يهدمهم.

الإصلاح ليس كراهية الواقع، بل حبه بما يكفي لرفض بقائه فاسداً.

والمصلح لا يكتفي بإعلان براءته الشخصية؛ لا يقول: أنا أوفي الميزان وليفعل الناس ما يشاءون. يشعر أن فساد السوق يمس مسؤوليته، فيتكلم ويبين ويدفع الثمن.

لكنه قال: (مَا اسْتَطَعْتُ).

يعرف حدوده. لا يدعي أنه سيصنع مجتمعاً كاملاً بيده، ولا يحمل نفسه قدرةً لم يمنحها الله له. يبذل استطاعته، ويترك ما وراءها لربه.

وهذا التوازن يحفظ المصلح من مرضين:

اليأس؛ لأنه لا يطالب نفسه بما ليس في وسعها.

والغرور؛ لأنه لا ينسب النجاح إلى قدرته وحدها.

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ).

قد يمتلك الفكرة واللغة والخطة، لكن التوفيق شيء آخر. هو أن يضع الله الكلمة في موضعها، ويفتح لها القلب، ويجمع لها الظروف، ويحفظ صاحبها من نفسه.

كم من كلمة صحيحة قبلت في وقت أفسد أثرها، وكم من نية حسنة سلكت طريقاً زاد المشكلة. لذلك يحتاج الإصلاح إلى توفيق، لا إلى حماسة فقط.

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

التوكل لحركة الخارج، والإنابة لحركة الداخل. يمضي في مهمته مستنداً إلى الله، ثم يعود إليه كلما أصابه تعب أو تسلل إلى قلبه إعجاب أو غضب.

لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي

قال شعيب: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طِ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ).

لا تجعلوا خصومتكم معي تدفعكم إلى رفض الحقيقة التي أحملها. فكم من إنسان يكره شخصاً، ثم يعاقب الفكرة الصحيحة لأنها جاءت على لسانه!

الشقاق يحجب البصيرة. يتحول السؤال من: هل هذا القول حق؟ إلى: من الذي قاله؟ فإذا كان من الخصم رفضناه قبل أن نسمعه.

وقد يرى الإنسان الخطر مقبلاً، لكنه يرفض التحذير لأن الذي حذره ليس من جماعته. كأنه يفضل أن تحرقه النار على أن يعترف بأن خصمه دله على الماء.

العدل الفكري أن تفصل صحة المعنى عن مشاعرك تجاه قائله. قد تخالف الرجل وتقبل حقه، وقد تحب الرجل وترد خطأه.

ثم وضع شعيب أمامهم ذاكرة التاريخ: نوح، وهود، وصالح، ولوط. إن السورة نفسها تجعل القصص حججاً متتابعة؛ فكل أمة كانت تستطيع أن ترى في سابقتها صورةً من عاقبتها.

(وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ).

ليسوا بعيدين في المكان أو الزمان، ولا في إمكان تكرار السنّة. لكن القرب من آثار الهالكين لا ينفع قلباً قرر ألا يعتبر.

قد يعيش المجتمع وسط المقابر السياسية والحضارية، ويرى أنظمة سقطت لأنها ظلمت، ثم يكرر الظلم نفسه بثقة من يظن أنه الاستثناء الوحيد من التاريخ.

إن الغرور لا ينكر السنن دائماً؛ يقول فقط: ستقع على غيرنا.

إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ

قال شعيب: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

بعد ذكر العذاب، أعاد فتح باب الرحمة. لم يكن يريد أن يحاصرهم بالماضي، بل أن يمنحهم مستقبلاً مختلفاً.

﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

لا يغفر فحسب، بل يودّ عباده التائبين. التوبة ليست عودة مجرم إلى سلطة تنتظر عقوبته، بل رجوع عبد إلى رب رحيم ودود.

كم تحمل كلمة ﴿وَدُودٌ﴾ من دفء! إن الله لا يقبل التائب قبولاً بارداً، ولا يظل يذكره بخطيئته ليهينه بها. يمحو، ويقرب، ويبذل السيئات حسنات لمن صدق في عودته.

قد يظن صاحب الذنب أن أقصى ما يرجوه هو النجاة من العقوبة، فإذا بالوحي يفتح له مقام المحبة.

ومهما فسد ميزانك، لا يزال بإمكانك أن تعيده إلى القسط.

ومهما بخست الناس، يمكنك أن ترد الحقوق.

ومهما اتسعت شبكة الفساد من حولك، تبدأ توبتك من القرار الذي تملكه أنت.

التوبة الاقتصادية ليست دمةً وحدها؛ إنها مال يعود إلى صاحبه، وميزان يصح، وعقد يُنصف، وامتنياز ظالم يتخلّى عنه المستفيد.

لا تكتمل توبة من حقوق الناس مع بقاء الحقوق في يده.

رَهْطُكَ أَعَزُّ عَلَيْنَا مِنَ اللَّهِ؟

قال قومه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

قالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ﴾، مع أن كلامه واضح: أوفوا الميزان، ولا تبخسوا الناس، واعبدوا الله. ليست المشكلة غموض العبارة، بل ثقل الالتزام.

حين لا يريد الإنسان أن يفهم، تصبح أوضح الكلمات معقدة.

ثم انتقلوا من الفكرة إلى تقييم القوة: ﴿نَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

في ميزانهم لا قيمة للحقيقة إن لم يحملها سلاح. كانوا يسألون: من يحميك؟ لا: ما حجتك؟

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾.

احترموا العصبية ولم يحترموا النبوة. امتنعوا عن قتله خوفاً من قومه، لا خوفاً من الله. وهنا انكشف انقلاب سلم الهيبة: رهط شعيب أعز في نفوسهم من رب شعيب.

قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

لقد وضعتم الله وراء ظهوركم، ثم حسبتم حساب القبيلة. خفتم من ثأر البشر، ولم تخافوا من عدل رب البشر.

وهذه علامة فساد عميق: أن يستقيم الإنسان في حضور صاحب النفوذ، ثم يظلم حين يغيب؛ لأن رقيب الأرض أكبر في قلبه من رقابة السماء.

قد تردع القوانين بعض الجريمة، لكن المجتمع لا يطهر حتى يصبح الله أعز في الضمير من كل قوة.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

تستطيعون إخفاء التطفيف في زاوية السوق، وتوزيع الجريمة بين أطراف كثيرة، لكنكم لا تخرجون من الإحاطة. يعلم الله الرقم الذي نقص، واليد التي أخذت، والقلب الذي برر، والفقير الذي عاد إلى بيته يحمل أثر الظلم.

اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ

قال شعيب: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

ليست دعوة لهم إلى المعصية، بل إعلان أن الحجة بلغت منتهاها. امضوا في الطريق الذي اخترتموه، وسأمضي في طريقي، وستكشف العاقبة صدق الموقفين.

(وَأَرْتَقِبُوا).

إن الزمن جزء من البرهان. فقد يستطيع الباطل أن يتزين في لحظة، وأن يعرض أرباحه السريعة بوصفها دليل نجاح. لكن انتظر حتى تنتضج الثمار. المال الحرام قد يبني قصرًا سريعًا، لكنه يبني حول صاحبه آثارًا لا تظهر كلها في كشف الحساب.

والفساد قد يحقق نموًا ظاهريًا، ثم يأتي يوم يكتشف فيه المجتمع أنه كان يأكل من أساسه.

والمصلح قد يبدو ضعيفًا خاسرًا، لكن الزمن يكشف أن كلمته كانت آخر فرصة لتجنب الانهيار.

كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿١٠٠﴾ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ).

تعود العبارة نفسها التي قيلت في ثمود: (كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا).

الأسواق التي ضجت بالمساومة سكنت.

والموازن التي أميلت بقيت بلا أيد.

والأموال التي جمعت بنقص حقوق الناس لم تشتتر لأصحابها لحظة من النجاة.

كانوا يخشون أن تنقص أرباحهم إذا أوفوا الميزان، فانتهى بهم الأمر إلى فقدان السوق والمال والحياة.

ما أعجب من يسرق جزءًا صغيرًا خوفًا من الفقر، فيخسر الكل!

(نَجِّينَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا).

نجا الضعيف الذي قالوا إن رهطه وحدهم يحمونه. واتضح أن قوته لم تكن في الرهط، بل في رحمة الله.

أما الذين قالوا: (أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)، فقد تركوا أموالهم كلها قسرًا. فالملكية التي لم تقبل حدود الله انتهت إلى زوال المالك والملك معًا.

حِينَ تَتَحَوَّلُ السُّوقُ إِلَى عَقِيدَةٍ

لم تكن مدين تعاني أخطاءً تجارية متفرقة. كان لديها تصور كامل للحياة: المال مالنا، نفعل فيه ما نشاء، والربح يبرر الطريق، والصلاة ينبغي ألا تتدخل في الاقتصاد.

لهذا أصبحت السوق عندهم عقيدة.

لها إلهها: الربح.

ولها عبادتها: التكديس.

ولها فقهها: كل ما لا يمنعه الأقوى مباح.

ولها ضحاياها: الذين لا يملكون القدرة على التفاوض.

ولها خطباؤها: الذين يسمون الجشع حريةً، والبخس مهارةً، والاحتكار ذكاءً.

جاء شعيب ليحرر السوق من وثنياتها. لم يطلب إلغاء التجارة، بل تطهيرها؛ ولم يطلب قتل الملكية، بل ردها إلى الأمانة؛ ولم يدع إلى الفقر، بل إلى الرزق الحسن.

فالإسلام لا يحتقر المال، ولكنه يرفض أن يصبح المال مقياس الإنسان وربّه الخفي.

المال خادم نافع، لكنه سيد قاسٍ.

إذا وضعته في يد الأخلاق، بنى البيوت، وأغاث المحتاج، وفتح أبواب العلم، وحفظ كرامة الأسرة.

وإذا وضعت الأخلاق في يده، اشترى الضمائر، وغيّر الموازين، وحول البشر إلى أرقام.

مِيزَانُ شُعَيْبٍ فِي حَيَاتِنَا

ليس التطفيف أن ينقص البائع غرامات من السلعة وحدها. كل علاقة فيها حقّان يمكن أن يدخلها ميزان شعيب.

حين يأخذ المسؤول الطاعة كاملةً ولا يمنح العدل، فقد طفف.

وحين يطلب الأب من أبنائه البر ولا يمنحهم الرحمة، فقد أمال ميزان العلاقة.

وحين يطالب القائد أتباعه بالتضحية، ثم يحتكر لنفسه المكاسب، فقد بخسهم أشياءهم.

وحين يريد الكاتب أن تُحترم أفكاره، ثم ينسب جهد غيره إلى نفسه، فقد أفسد مكيال المعرفة.

وحين نحاسب خصومنا على الظنون، ونعذر أصدقاءنا في الحقائق، فقد صار لنا ميزانان.

وحين تأخذ الأمة من الضعيف الضرائب والواجبات، ثم تحرمه من الأمن والخدمة والكرامة، فقد تحولت الدولة نفسها إلى سوق من أسواق مدين.

إن العدل ليس باباً من أبواب الحياة؛ إنه الميزان الذي ينبغي أن يدخل كل باب.

والمجتمع لا يهلك فقط حين تقل موارده، بل حين يفقد الناس الثقة بأن الحقوق ستصل إليهم. عندئذ يسرق كل فرد ما استطاع قبل أن يسرقه الآخرون، وتتحول الدولة إلى سباق على ما تبقى من الغنيمة.

بَقِيَّةُ اللَّهِ

تبقى كلمة شعيب واقفةً فوق أنقاض مدين: (بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ).

ما أبقاه الصدق خير مما جمعه الغش.

وما أبقاه العدل خير مما زاده النفوذ.

وما أبقاه أداء الحقوق خير مما راكمه البخس.

وما بقي لك مع رضا الله خير مما كثر في يدك وهو يحمل دعوات المظلومين.

قد يبدو الحلال أقل في اللحظة الأولى، لكنه لا يأتي وحده؛ تأتي معه البركة والسكينة والثقة.

وقد يبدو الحرام أكثر، لكنه لا يأتي وحده أيضاً؛ يجر وراءه الخوف والقسوة والحساب.

وهكذا لم تكن دعوة شعيب درساً في تحسين أدوات البيع فحسب، بل في إعادة بناء الإنسان الذي يقف خلف الميزان.

فاليد لا تنقص الكيل حتى يكون القلب قد أنقص قيمة الآخر.

ولا يبخس الإنسان حق أخيه حتى يكون قد ضحّم حق نفسه.

ولا يتحول المال إلى طغيان حتى ينسى صاحبه أن ما في يده بقيّة مؤقتة،
وأنه سيقف يومًا أمام ميزان لا يستطيع أن يعبث به.

في ذلك اليوم لن يكون الإنسان بائعًا ولا مشتريًا.

سيكون هو العمل الموضوع في الكفة.

وسيعلم أن أدق الموازين لم تكن تلك التي نصبها في متجره، بل الميزان الذي
كان الله يقيمه في ضميره كلما مر حقُّ إنسانٍ بين يديه.

الفصل التاسع

مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنُ

السلطة التي قادت قومها إلى النار

بعد قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، تنتقل سورة هود إلى قصة موسى عليه السلام في مشهد مكثف. لا تعرض هنا تفاصيل ميلاده، ولا خروجه من مصر، ولا وقوفه أمام البحر، وإنما تلتقط جوهر المواجهة بين الرسالة والسلطة، ثم ترينا نهاية القائد الذي استخف قومه فأطاعوه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

جاء موسى بآيات الله وسلطان مبين. لم يكن مجرد رجل غاضب من نظام الحكم، ولا منافساً يريد أن ينتزع العرش من فرعون؛ كان يحمل حقيقة تأتي من فوق جميع العروش.

أما فرعون فكان يملك سلطان القهر: الجنود، والقصر، والسجن، والقتل، وأجهزة تصنع من صوته حقيقة عامة. لكن القرآن يضع السلطانين متقابلين:

سلطان موسى بيّن بالحجة.

وسلطان فرعون ضخم بالأداة.

الأول يخاطب العقل والضمير.

والثاني يضغط على الخوف والمصلحة.

قد يبدو سلطان القهر أقوى في اللحظة؛ لأنه يستطيع أن يسجن الجسد ويقطع الرزق ويملأ الميادين بصور صاحبه. أما سلطان الحق فلا يملك دائماً أدوات الإكراه، لكنه يدخل إلى الموضع الذي لا تستطيع الجيوش اقتحامه: القلب.

ولهذا آمن السحرة في مجلس فرعون نفسه. كانوا جزءاً من مشهد صنعه الطاغية لإثبات قوته، ثم تحولت بصيرتهم إلى شهادة عليه. استطاع فرعون أن يهدد أجسادهم، لكنه لم يستطع أن يعيد اليقين إلى خارج قلوبهم بعدما دخل. إن السلطة التي لا تملك إلا إخافة الإنسان محدودة، مهما بدت مطلقة. فالخوف قد يصنع طاعة الجسد، لكنه لا يصنع إيمان الروح.

وَمَلَّئْهُ

لم يُرسل موسى إلى فرعون وحده: (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَّئْهُ).

فالتطغيان ليس شخصاً يجلس منفرداً في قصر. حوله ملاء يمنحه القدرة على تحويل هواه إلى نظام. مستشارون يزينون له، وقادة ينفذون، وكتبة يصوغون جرائمه في لغة وطنية، وأصحاب مصالح يرون بقاءه ضماناً لبقائهم.

قد يكون فرعون رأس الاستبداد، لكن الرأس لا يتحرك دون جسد.

والملا أخطر من الجنود أحياناً؛ لأن الجندي ينفذ الأمر، أما الملا فيصنعون له المعنى الذي يجعله مقبولاً. يحولون خوف الحاكم إلى سياسة، وعدوانه إلى دفاع، واحتقاره للناس إلى هيبة، وهزيمته إلى انتصار لا يراه سواهم.

إن الطاغية يحتاج إلى من يكذبون له قبل أن يحتاج إلى من يقتلون من أجله. فإذا قيل له كل صباح إنه حكيم، وإن الشعب يحبه، وإن المعارضين أعداء، بدأ يعيش داخل صورة صنعتها مصالح الملا، ثم يعاقب الواقع لأنه لا يشبه الصورة.

لكن مسؤولية الملا لا تعفي القوم، فقد قال الله: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

كان بإمكانهم أن يتبعوا آيات موسى، لكنهم اختاروا أمر فرعون. وهنا تظهر مسؤولية الجماهير في صناعة الطغيان. قد تكون خائفة، وقد تقع تحت التضليل، وتختلف درجات المسؤولية بحسب القدرة والعلم والإكراه؛ لكن المجتمع الذي يحول طاعة الحاكم إلى مرجعية مطلقة يمنحه مادة الاستبداد. لا يستطيع فرعون أن يكون فرعوناً بلا قوم يرون أمره أعلى من بصائرهم.

وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

كان أمره نافذاً، لكنه لم يكن رشيداً.

وهنا يفرق القرآن بين القدرة على إصدار القرار وصحة القرار. فليس كل قائد يملك الطاعة أهلاً للقيادة، ولا كل أمر تنفذه المؤسسات أمراً حكيماً.

قد يبلغ النظام غاية الانضباط في السير إلى الهاوية.

وقد تكون الأجهزة دقيقة، والصفوف منتظمة، والتعليمات واضحة، لكن الوجهة باطلة.

الرشد ليس قوة القرار، بل سلامة الغاية والطريق. أن يرى القائد العاقبة، ويزن المصلحة بالعدل، ويعامل الناس بوصفهم أمانة لا أدوات.

أما فرعون فكان يرى الدولة امتداداً لذاته. مصر له، والأنهار تجري من تحته، والناس طبقات يصنع لكل منها وظيفة في بقاءه. لم يكن يسأل: ما الخير لقومي؟ بل: ما الذي يثبت عرشي؟

وحين تتحول الدولة إلى مرآة لحاكمها، تصبح المصلحة العامة اسماً آخر لمصلحته. ما يحميه أمن، وما ينتقده فتنة، وما يزيد صورته إنجاز، وما يكشف فشله خيانة.

لكن القرآن ينزع عن الأمر كل زخرفته: (وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ).

جملة واحدة تهدم جبال الدعاية. قد يكون الأمر مهيباً، مدعوماً بالجند، يردده المملأ، وتخضع له البلاد؛ لكنه ليس رشيداً.

الحقيقة لا تنبهر بخاتم السلطة.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ

ثم تنقلنا السورة مباشرةً إلى الآخرة: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

كما كان يتقدم قومه في الدنيا قائداً، يتقدمهم في الآخرة. لكن الوجهة التي أخفاها خلف الشعارات تظهر الآن: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾.

القرآن يستخدم صورة الورد؛ إذ تُقاد الجماعة عادةً إلى الماء لتشرب، لكن فرعون يقود قومه إلى النار. وعدهم بالأمان، فأوردهم الخوف الأبدي. وأقنعهم أنه يعرف طريق القوة، فقادهم إلى موضع العجز الكامل.

كل قيادة تحمل أتباعها إلى «ورد»، وإن لم تره الجماهير في البداية. فالقرارات اليومية الصغيرة تتجمع لتصنع وجهةً أخيرة. ومن الخطأ أن يُقَيَّم القائد بمقدار قدرته على تحريك الناس، قبل أن يُسأل: إلى أين يحركهم؟

قد يكون ماهراً في الخطابة، شديد الحضور، قادراً على جمع الملايين؛ لكن القدرة على جمع الركاب لا تثبت سلامة السفينة ولا صحة الميناء.

القيادة ليست أن يسير الناس خلفك، بل أن يكون الموضع الذي تقودهم إليه خيراً لهم.

إن القائد الذي يستخدم ولاء أتباعه ليزيد سلطانه يخونهم، حتى لو هتفوا باسمه. والذي يستنزف أعمارهم في معارك تخدم مجده لا يقودهم؛ إنه يستهلكهم.

فرعون لم يسقط وحده، بل أورد قومه. وهذه جريمة القيادة حين تنفصل عن الأمانة: لا يكتفي الضال بأن يضيع نفسه، بل يحول موقعه إلى طريق يعبر منه الآخرون إلى الضياع.

الطَّاعَةُ الَّتِي لَا تُغْفِي مِنَ الْمَصِيرِ

قد يقول أتباع الطغاة: كنا مأمورين، أو كنا نتبع القيادة، أو لم نملك إلا السير مع الناس. لكن سورة هود تسجل اختيارهم: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

الاتباع فعل لهم، كما أن الأمر فعل فرعون. فالمستبد مسؤول عن طغيانه، والأتباع مسؤولون بقدر علمهم وقدرتهم واختيارهم عن تمكينه وطاعته في الباطل.

لا يمنح الإسلام الحاكم حق مصادرة ضمير الإنسان. الطاعة في المعروف، أما حين يصبح الأمر معصيةً وظلمًا فلا تتحول الجريمة إلى فضيلة لأن صاحب منصب أمر بها.

إن الضمير آخر حصون الإنسان. فإذا سلّمه للقائد، لم يعد تابعًا فقط؛ صار أداة قابلةً لأن تُستخدم ضد الحق ثم تعتذر بأنها لم تكن تقرر.

لكن كل يد تعلم ما فعلت، وكل لسان يعلم الكلمة التي قالها، وكل عقل يعلم اللحظة التي رأى فيها الباطل ثم اختار الصمت أو التبرير.

وقد يكون الإكراه حقيقياً يخفف المسؤولية أو يرفعها حيث تنعدم القدرة، والله أعلم بالسرائر والطاقت. لكن الخطر أن يتحول الخوف إلى ذريعة أوسع من

حقيقته؛ فيدعي الإنسان أنه كان مضطراً إلى ما فعله طمعاً في القرب أو المال.

ليس كل خائف مكرهاً.

وقد يكون الذي يخشاه المرء هو فقدان امتياز، لا فقدان الحياة.

اللَّعْنَةُ الَّتِي تَلْحَقُ الْمُؤَكَّبَ

قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسَخُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

في الدنيا لعنة، وفي القيامة لعنة. هذا هو العطاء الذي منحه فرعون لأتباعه: ﴿يَنْسَخُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

كان الملوك يمنحون العطايا لأهل ولائهم، لكن فرعون قدّم لأتباعه رفداً من الخزي. ربما منح بعضهم المناصب والأموال في الدنيا، غير أن تلك العطايا كانت تحمل داخلها لعنتها؛ لأنها أثمان لدورهم في تثبيت الظلم.

ليست كل هدية تكريماً.

قد يمنحك الظالم منصباً، لكنه يأخذ منك في المقابل اسمك في سجل العدالة.

وقد يفتح لك باب القصر، ويغلق عليك باب الضمير.

وقد يرفعك فوق الناس زمناً، ثم يتركك تسقط معه حين ينتهي المشهد.

إن أخطر ما يقدمه الطغيان لأنصاره ليس المال، بل الإحساس بأنهم شاركوا القوة. يشعر الواحد منهم أنه أكبر من حقيقته لأنه قريب من صاحب القرار، ولا يدري أنه يتحول بالتدريج إلى جزء من جريمة لا يملك بعد ذلك أن ينفصل عنها.

ثم إذا سقط الطاغية، بقيت أسماؤهم ملتصقةً بعصره كما تلتصق الظلال بالجدار المحترق.

مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى

بعد عرض مصائر الأمم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

من تلك القرى ما لا تزال آثاره قائمةً يمر بها الناس، ومنها ما حُصد فلم يبق إلا خبره. لكن بقاء الحجر أو زواله ليس القضية؛ فالمعنى محفوظ في القرآن. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

الحضارات كزرع. تنبت، وتقوى، وتمتلئ السنابل، ثم يأتي الحصاد. لا شيء في التاريخ يملك صفة الدوام الذاتي.

قد يبقى بعض البناء ليشهد على زوال أصحابه، فيتحول ما أرادوه رمزاً للخلود إلى دليل على الفناء.

وما أعجب أن يبني الإنسان أثرًا ليقول: كنت هنا، ثم يمر الناس بالأثر
ويسألون: أين ذهب؟

إن الآثار لا تثبت خلود الإنسان، بل تكشف الفارق بين صلابة الحجر وقصر
العمر.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ

قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

هذه قاعدة جامعة في قصص الهلاك كلها. لم يكن العذاب فعل قوة مجردة
نزلت على أبرياء، بل نهاية طريق اختاروه بعد البيان والإنذار والمهلة.

ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا غيرهم. فالظالم يظن أن أثر جريمته يذهب إلى
الضحية وحدها، لكنه يحفر بها في روحه، ويهيئ مصيره بيده.

من يسرق مال إنسان يأخذ من خزينة أخيه، لكنه يضع في كتاب نفسه نارًا.

ومن يهين ضعيفًا يجرح كرامته، لكنه يشوه إنسانيته هو.

ومن يكذب ليحصل على مكسب يضل الآخرين لحظة، لكنه يفقد في داخله
القدرة على رؤية الحقيقة.

إن المعصية ارتداد على فاعلها، ولو بدا في أول الأمر أنه المنتفع الوحيد
منها.

(وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ).

لقد وضعوا أنفسهم في موضع العذاب، وقطعوا عنها طريق الرحمة، وباعوا مستقبلها من أجل لذة أو سيادة مؤقتة.

والله سبحانه منزّه عن الظلم. لا يواخذ عبداً بما لم يعمل، ولا يضيع حسنة، ولا يزيد في السيئة على قدرها، ويعفو عن كثير. وإذا نزل حكمه، نزل بعلم كامل لا يغيب عنه عذر ولا إكراه ولا خفقة ندم.

فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ

قال تعالى: (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ).

كل أمة أقامت حولها شيئاً ظنت أنه سيحميها:

قوم نوح وثقوا بعالمهم المستقر.

وابنه وثق بالجبل.

وعاد وثقت بقوتها.

وتمود وثقت ببيوتها المنحوتة.

وقوم لوط وثقوا بكثرتهم وانھیار الموانع.

ومدين وثقت بمالها ورهطها.

وفرعون وثق بملئه وجنده وملكه.

لكن حين جاء أمر الله لم تغنِ هذه الآلهة شيئاً.

إن الصنم ليس حجراً فقط؛ هو كل شيء يمنحه القلب وعداً مطلقاً بالأمان أو القوة أو القيمة من دون الله.

وقد لا يعرف الإنسان معبوده الخفي إلا عند التهديد. انظر إلى الشيء الذي إذا اهتز شعرت أن وجودك كله ينهار؛ فقد يكون قد أخذ في قلبك مساحةً أكبر من حجمه.

المؤمن يحب ويملك ويعمل، لكنه لا يضع مصيره النهائي في شيء زائل. يعلم أن الأسباب قد تنفع بإذن الله، لكنها لا تملك أن تقف أمام أمره. (وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ).

الآلهة التي لجؤوا إليها لم تعجز عن نفعهم فقط، بل زادتهم خسارة؛ لأنها منحتهم طمأنينةً كاذبةً أخّرت رجوعهم. والجبل لا يهلك الإنسان بصلابته، بل بالوعد الكاذب الذي يضعه فيه: أنا أعصمك.

وأخطر الباطل ما لا يؤلم صاحبه مباشرةً، بل يطمئنه حتى تقوته السفينة.

أَخَذُ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.
(وَهِيَ ظَالِمَةٌ).

ربط الأخذ بالظلم. ليست المسألة أسماء الأمم ولا أعرافها ولا مواقعها، بل الوصف الأخلاقي الذي قامت عليه.

حين يصبح الظلم هو النظام لا الاستثناء، وحين تغلق أبواب الإصلاح، وحين يحتمي المعتدي بالمؤسسات التي كان ينبغي أن تحمي الضحية، تبدأ القرية في السير نحو الأخذ، وإن كانت أسواقها عامرة وقصورها مضاءة.

إن العمران لا يلغي السنن الأخلاقية. قد تتطور وسائل الأمة، لكن الظلم القديم يظل ظلمًا. التكنولوجيا لا تمنحه شرعية، والقانون الذي يصوغه الظالم لا يحوله إلى عدل.

(إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ).

فلا يغتر المفسد بالإمهال. بطء العدالة ليس موتها. وقدرة الله لا تحتاج إلى مقدمات نراها حتى تنفذ.

لكن هذه الآية ليست دعوة للناس إلى تعيين مواعيد سقوط المجتمعات، أو الجزم بأن كل كارثة طبيعية عقوبة محددة؛ فهذا من الغيب الذي لا يُقال فيه

بلا علم. إنما نتعلم السنّة العامة: أن الظلم لا يؤسس أماناً دائماً، وأن عاقبته وخيمة في الدنيا أو الآخرة، وقد يجمع الله بينهما.

آيَةُ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

ليست كل عين ترى الآية، حتى لو قرأت القصة. الذي ينتفع حقاً هو من يخاف الآخرة؛ لأن خوفه يمنحه الجدية. أما من يعتقد أن الموت يغلق الملف، فقد يحول القصص إلى أدب تاريخي ممتع ثم يخرج منها كما دخل.

﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾.

الذين تفرقوا في القرون والأرض واللغات سيجمعون. الطغاة وضحاياهم، الأنبياء ومكذبوهم، القادة وأتباعهم، من أعطى الأمر ومن نفذه ومن تضرر منه؛ الجميع في موضع واحد.

لن يستطيع فرعون أن يعقد محكمة خاصة يختار قضاتها.

ولا الملأ أن يخفوا الوثائق.

ولا الجماهير أن تختبئ داخل كثرتها.

كل فرد يأتي وحده، مع أنه مجموع مع الناس.

(وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ).

تشهد فيه الخلائق، وتشهد الجوارح، وتشهد الأرض، ويظهر ما كان يُدار في
الغرف المغلقة.

كم من مظلوم مات ولم يجد من يسمع قصته! تكفيه هذه الآية: هناك يوم
مشهود، لن تُدفن فيه الحقيقة مع صاحبها.

وكم من ظالم أحسن ترتيب صورته حتى خرج من الدنيا في هيئة البطل!
تنتظره هذه الآية: هناك يوم مشهود، تسقط فيه الأسماء التي منحها الناس،
ويبقى الاسم الذي يستحقه العمل.

أَجَلٌ مَّعْدُودٌ

قال تعالى: (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ).

القيامة ليست وعدًا مبهمًا في زمن ضائع. لها أجل معلوم عند الله، وما يمر
من الأيام لا يؤخرها، بل يقربها.

نحن نقول: مرّ يوم من عمرنا، والأدق أنه اقترب يوم من موعدنا.

كل شروق ليس إضافةً إلى الماضي فقط، بل نقصان من المسافة.

لكن الإنسان يألف التأجيل حتى يتوهم أن المؤجل لن يأتي. يرى أجيالاً تموت
والدنيا باقية، فيحسب أن بقاء المسرح يعني إلغاء النهاية. ولا يدري أن كل
جيل خرج كان جزءًا من استعداد الجمع الأكبر.

(لَا جَلَّ مَعْدُودٍ).

ما دام معدودًا، فإنه ينتهي. وما دامت اللحظات محسوبةً، فلا توجد دقيقة ضائعة من علم الله.

وهذه الحقيقة تمنح المظلوم صبرًا، وتمنح الغافل إنذارًا. فالعدالة آتية، لكنها لا تتحرك وفق استعجالنا؛ تتحرك وفق حكمة من أحاط بالقضية كلها.

يَوْمَ يَأْتِ

قال تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ).

الأسنة التي ملأت الدنيا تبريرًا تصمت. والخطباء الذين صنعوا من الباطل روايةً رسمية لا يتكلمون إلا بإذن الله.

في الدنيا قد ينقذ الإنسان نفسه ببلاغته، أو يربك المحكمة بكثرة الكلام، أو يحول التهمة إلى خصمه. أما هناك فلا تعمل اللغة خارج سلطان الحق.

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ).

انتهت التقسيمات التي صنعها البشر: غني وفقير، حاكم ومحكوم، مشهور ومجهول، قوي وضعيف. بقي التقسيم الذي يكشف النتيجة النهائية: شقي وسعيد.

قد يكون الشقي قد عاش محاطًا بمظاهر السعادة، والسعيد قد عبر الدنيا مثقلًا بالألم. لأن الدنيا لم تكن الصفحة الأخيرة التي تُعرّف بها المصائر.

ثم تعرض السورة مشهد الفريقين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ﴾.

إنها النتيجة التي كانت تتحرك نحوها القصص كلها. الطوفان والصيحة والريح مشاهد دنيوية، أما الآخرة فهي الفصل الذي لا ينتهي بانتهاء الأثر.

ولهذا كان إنذار الأنبياء رحمة. كانوا يريدون نقل أقوامهم من شقاء أبدي إلى سعادة لا تنقطع، لكن الأقوام رأوا في الدعوة تهديداً لراحة مؤقتة، فحموا اللحظة وخسروا المصير.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ

قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

بعد عرض تاريخ طويل من التكذيب، يخاطب الله رسوله ﷺ: لا تكن في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء، ولا يجعلنك امتداد باطلهم وكثرة أتباعه تظن أن وراءه حجة خفية.

إنهم يكررون ما فعله الآباء.

وهذه إحدى قوى الباطل: قدرته على التنكر في صورة الموروث. يأتي الجيل الجديد فيجد الممارسة قائمة، فيحسب أن استمرارها دليل صحتها. ثم يضيف إليها عمراً جديداً، فيأتي من بعده فيحتج به.

وهكذا يصنع البشر من تكرار الخطأ سلطةً، مع أن كل جيل كان يقلد السابق دون أن يملك أول السلسلة برهاناً.

لكن كل إنسان سيأخذ نصيبه غير منقوص. فالانتماء إلى الجماعة لا يذيب المسؤولية الفردية. لن يقول المرء: فعلت ما يفعله المجتمع، فيسقط عنه الحساب؛ لأنه مُنح عقلاً وفطرةً ووصلته الحجة بقدر ما شاء الله.

الْاِخْتِلَافُ وَالْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾.

حتى كتاب موسى وقع فيه الاختلاف. فوجود الوحي لا يلغي قدرة الإنسان على التأويل والرفض والتحريف والانتقاء. النور موجود، لكن القلوب لا تقف أمامه على حال واحدة.

وقد يتوهم الداعية أن وضوح رسالته سيمنع الاختلاف كله، فإذا اختلف الناس ظن أنه أخفق. لكن القرآن يريه أن الكتاب نفسه قد يُختلف فيه، لا لنقص فيه، بل لاختلاف أهواء المتلقين واستعداداتهم.

الحق واضح في مصدره، لكن الإنسان قد يصنع حوله ضباباً من مصالحه.

ولولا كلمة سبقت بتأخير القضاء إلى أجله، لفُصل بينهم عاجلاً. غير أن الدنيا دار امتحان، لا دار الجزاء الكامل. سيظل فيها مجال للاختيار، وستبدو أحياناً الآراء كلها قائمةً في المشهد، حتى يأتي اليوم الذي يكشف فيه الميزان الفرق.

وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لِيُوفَّيْنَهُمْ

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لِيُوفَّيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(كُلًّا).

فرعون وملؤه.

موسى والذين آمنوا معه.

الحاكم والمحكوم.

الآمر والمنفذ.

المتكلم والصامت.

المظلوم الذي لم يعرف الناس اسمه.

كل واحد سيجد عمله موفّى.

لا تضيع حسنة لأنها لم تُصوّر، ولا تسقط جريمة لأن فاعلها أحسن إخفاءها. فالله خبير لا يكتفي بظاهر الحركة؛ يعلم مقدار العلم والقصد والقدرة والإكراه، ويضع العمل في موضعه الذي لا يظلم صاحبه.

وهنا تنتهي رحلة فرعون في سورة هود عند ميزانٍ لا يستطيع السيطرة عليه.

كان يملك الموازين في الدنيا؛ يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، ويمنح الألقاب وينزعها، ويصنع من الساحر مقرباً ثم يحكم عليه بالصلب حين يؤمن.

أما في الآخرة فلا يملك أن يزيد حسنةً في كتابه، ولا أن يحذف سيئة، ولا أن يمنح أتباعه نجاةً بعدما أوردتهم النار.

لقد قادهم في الدنيا لأنهم سلموه عقولهم.

وقادهم في الآخرة لأن الطريق الذي اختاروه خلفه لم يكن ينتهي عند القصر، بل عند النار.

وهكذا تضع السورة أمام كل قائد سؤالاً لا يستطيع الهرب منه:

إلى أين تقود من وثقوا بك؟

وتضع أمام كل تابع سؤالاً آخر:

هل سلّمت بصيرتك لرجل، ثم ظننت أن طاعته ستعفيك من الوصول إلى حيث يمضي؟

إن القيادة أمانة أخلاقية قبل أن تكون قدرةً على إصدار الأوامر. ومن لم يرَ في أتباعه أرواحاً سيُسأل عنها، رآهم درجاتٍ يصعد بها إلى مجده.

أما القائد الرشيد، فلا يسأل كم شخصًا سار خلفي، بل يسأل: كم إنسانًا حفظت كرامته، وقربته من الحق، ومنعته من أن يكون وقودًا لطموحي؟

فرعون كان يقود موكبًا عظيمًا، لكن عظمة الموكب لم تغير وجهته.

وموسى بدا مطاردًا قليل القوة، لكنه كان يحمل قومه إلى البحر الذي سينفتح.

ليس كل من يقف في المقدمة إمامًا إلى النجاة.

قد يكون أول الداخلين إلى النار.

الفصل العاشر

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ

صناعة الثبات في زمن الفتنة

بعد أن مرّت السورة على مواكب الأنبياء، ورأينا السفينة تشق الموج، والريح تقتلع عادًا، والصيحة تُسكت ثمود ومدين، والقرى تنقلب بقوم لوط، وفرعون يتقدم أتباعه إلى النار؛ تصل السورة إلى الكلمة التي تتجمع عندها خيوط الرحلة كلها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ليست قصص السورة أخبارًا عن أناس استقاموا وآخرين انحرفوا فحسب؛ إنها إعداد لهذه الكلمة.

كان نوح مستقيمًا حين ظل يبني والسخرية تمر به كل يوم.

وكان هود مستقيمًا حين وقف أمام أمة القوة وقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾.

وكان صالح مستقيمًا حين خيره قومه بين رضاهم وطاعة ربه.

وكان لوط مستقيمًا حين ضاق به مجتمع كامل ولم يسمح لانحراف الجماعة أن يغيّر اسم الطهر في ضميره.

وكان شعيب مستقيماً حين دخل بالتوحيد إلى السوق، ورفض أن يجعل المال منطقة مغلقة أمام أمر الله.

وكان موسى مستقيماً حين واجه سلطان فرعون بسلطان الحق.

كل قصة كانت وجهاً من وجوه الأمر الواحد: (فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ).

ثَقُلُ الْإِسْتِقَامَةِ

لم ثقل الآية: فاستقم كما ترغب، ولا كما تسمح الظروف، ولا كما يرضى الناس: (كَمَا أُمِرْتَ).

فالاستقامة ليست أن يختار الإنسان من الحق الجزء الذي ينسجم مع طبعه، ثم يسمي اختياره التزاماً. إنها أن يردّ حركته إلى الأمر الإلهي؛ لا يزيد بدافع الغضب، ولا ينقص بدافع الخوف.

قد يكون الإنسان شجاعاً، لكنه يحتاج إلى أن يستقيم بشجاعته حتى لا تتحول إلى تهور.

وقد يكون رحيماً، لكنه يحتاج إلى أن تستقيم رحمته حتى لا تصبح تمييزاً للحق.

وقد يكون حازماً، لكنه يحتاج إلى أن يستقيم حزمه حتى لا يتحول إلى قسوة.

وقد يكون ذكياً، لكنه يحتاج إلى أن يستقيم ذكاؤه حتى لا يصبح آلة لتبرير الهوى.

الاستقامة لا تلغي صفات الإنسان، بل تضبطها على اتجاه العبودية. تجعل القوة عدلاً، واللين رحمةً، والعلم خشيةً، والعمل إخلاصًا.

وهي ليست موقفًا واحدًا ينجح فيه المرء ثم يحصل على شهادة دائمة. إنها فعل يومي، بل لحظي؛ لأن القلب يتقلب، والضغوط تتغير، والباطل لا يأتي في صورة واحدة.

قد تتجو اليوم من فتنة الخوف، فتأتيك غداً فتنة القوة.

وقد تصمد أمام التهديد، ثم تسقط أمام الثناء.

وقد ترفض مألًا حرامًا، ثم تطلب جاهًا يفسد نيتك.

ولهذا كانت الاستقامة أثقل من البطولة العابرة. يستطيع الإنسان أن يندفع في لحظة حماسة، لكن أن يحفظ اتجاهه على طريق طويل، في الرضا والغضب، والمنع والعطاء، والظهور والخفاء؛ فتلك تربية عمر.

لَا تُحَوِّلِ الْأَلَمَ إِلَى بُوصَلَةٍ

جاء الأمر بالاستقامة بعد عرض طويل لأذى المكذبين. وهذا يعني أن الظلم لا يمنح المظلوم حق الانحراف.

قد يصنع الأذى داخل الإنسان رغبةً في أن يرد بأي وسيلة. يقول لنفسه: لقد بدأوا، وقد تجاوزوا الحدود، وليس من العدل أن أظل ملتزمًا بقيم لا يلتزمون بها.

لكن الاستقامة تعني أن تظل قيمك صادرةً عن الله، لا عن سلوك خصمك.

إذا كذب، لا يجعل كذبه الصدق سداً في نظرك.

وإذا خان، لا يحول أمانتك إلى خطأ تندم عليه.

وإذا ظلم، لا تمنحه القدرة على أن يصنع منك ظالماً آخر.

إن أشد انتصارات الشر ليس أن يؤلم الإنسان، بل أن يعيد إنتاج نفسه في داخله. فإذا جعل المظلوم قاسياً، والصادق كاذباً، والأمين خائناً؛ فقد تجاوز جسده إلى روحه.

الاستقامة هي أن تمنع خصمك من اختيار أخلاقك نيابةً عنك.

لا يعني ذلك الاستسلام للعدوان؛ فالحق يُدفع عنه، والمظلوم ينصر نفسه بالعدل، والقوة تُستعمل في موضعها. لكن حتى المقاومة تحتاج إلى ميزان، حتى لا يصبح هدفها الانتقام للنفس بدل إقامة الحق.

(كَمَا أُمِرْتُ).

هذه العبارة تمنعنا أن نتخذ الألم شريعةً جديدة.

وَمَنْ تَابَ مَعَكَ

لم يكن الأمر للنبي ﷺ وحده: (وَمَنْ تَابَ مَعَكَ).

فالاستقامة مسؤولية الجماعة المؤمنة كلها. ليس القائد وحده مطالبًا بحمل القيم، بينما يسمح الأتباع لأنفسهم بما يشاؤون. ولا يكفي أن يكون في رأس المشروع رجل صالح إذا كانت العلاقات داخله مبنيةً على الظلم والبخس والعصبية.

الأمة المستقيمة لا تُبنى بصلاح الفرد الأعلى وحده، بل باستقامة النسيج كله. قد يحمل القائد خطابًا عظيمًا، ثم يفسده أتباع يتعاملون مع الناس بعكسه. وقد تكون الفكرة عادلةً، لكن من يمثلونها يظلمون باسمها، فيضعون بينها وبين القلوب حجابًا من سلوكهم.

(وَمَنْ تَابَ مَعَكَ).

التوبة هنا ليست خروجًا من خطيئة فردية فقط، بل انتقال من نظام الجاهلية إلى طريق الله. ومع هذا الانتقال تبدأ مسؤولية جديدة: أن تتشكل حياة الجماعة وفق الحق الذي أعلنت الإيمان به.

لا يكفي أن تخرج من صف الباطل؛ يجب أن تُخرج الباطل من طريقة عملك. ولا يكفي أن ترفع راية العدل؛ ينبغي أن يشعر به أضعف إنسان داخل صفك.

ولا يكفي أن تلعن فرعون؛ يجب ألا تصنع فرعونًا صغيرًا في الموقع الذي تملكه.

وَلَا تَطْغَوْا

بعد الأمر بالاستقامة جاء النهي: (وَلَا تَطْغَوْا).

إنه تحذير دقيق؛ فقد يتحول الساعي إلى الحق نفسه إلى الطغيان، إذا تجاوز الحد باسم الغيرة على الدين. والاستقامة ليست غلًا، بل وقوف عند الأمر. فمن زاد من عند نفسه كما ينقص من عند نفسه، خرج عن الميزان.

قد يظن الإنسان أن الطغيان لا يكون إلا عند أصحاب الباطل، لكن الآية تخاطب النبي ﷺ ومن تاب معه. فالطغيان خطر يقترب من كل من امتلك قوة أو حقًا أو جمهورًا.

قد يطغى الإنسان على خصمه فينسب إليه ما لم يقل.

وقد يطغى في العقوبة فيتجاوز قدر الذنب.

وقد يطغى في الحكم فيجعل خطأ واحدًا تعريفًا نهائيًا للإنسان.

وقد يطغى في العبادة فيحمل نفسه أو الناس ما لم يأذن به الله.

وقد يطغى في القيادة فيرى أن خدمة الرسالة تمنحه حق التحكم في كرامات العاملين لها.

ومن أخطر الطغيان ذلك الذي يلبس ثوب المقدس؛ لأن صاحبه لا يراجع نفسه، بل يتوهم أن اعتراض الآخرين عليه اعتراض على الله.

لكن الفرق قائم بين الحق وحامله. الحق معصوم في مصدره، أما الإنسان فيبقى معرضاً للهوى ولو رفع راية الحق. ولهذا يحتاج باستمرار إلى ميزان الوحي، لا إلى الشعور الذاتي بأنه على الجهة الصحيحة.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

لا يرى الشعار فقط، بل يرى العمل.

ولا يسمع ما نقوله عن أنفسنا فحسب، بل يعلم الدافع والوسيلة والأثر.

قد تقنع الناس أن قسوتك غيرة، لكن الله يبصر ما في الغيرة من انتقام.

وقد تسمي سيطرتك قيادةً، لكنه يبصر مقدار ما فيها من حب الذات.

وهذه البصيرة الإلهية تحرر المؤمن من خداع الأسماء.

وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

لم يقل: لا تظلموا فقط، بل: ﴿لَا تَرْكُنُوا﴾ إلى الظالمين.

فالظلم لا يعيش بفاعله وحده؛ يحتاج إلى من يطمئنون إليه، ويمنحونه الشرعية، ويتكئون على قوته، ويسكتون عن جرائمه رجاء منفعة أو خوفًا على مكانة.

الركون ميلٌ يحمل في داخله سكون القلب. قد لا يشارك الإنسان في الفعل مباشرةً، لكنه يأنس بالظالم، أو يجمّل صورته، أو يربط مصالحه ببقائه حتى يصبح سقوط الظلم تهديدًا شخصيًا له.

وهنا يدخل النار من نافذة لم يكن يتوقعها: لم أظلم، وإنما اقتربت من الظالم. لكن القرب الذي يقوّي الظلم ليس بريئًا.

والثناء الذي يطمئن الطاغية إلى طريقه ليس مجرد كلام.

والصمت الذي يفهم منه الرضا قد يصير جدارًا يحتمي وراءه المعتدي.

لا تعني الآية ترك التعامل الضروري أو المشروع مع كل من وقع في ظلم، ولا تمنع نصحه أو دفع شره بما تتحقق به المصلحة؛ إنما تنهى عن الميل الذي يمنح الظلم ولاء القلب، وعن الاتكاء الذي يجعل المؤمن تابعًا له أو مسوِّغًا لفعله.

هناك فرق بين أن تدخل على الظالم لترد مظلمة، وأن تدخل عليه لتأخذ نصيبك من ظلمه.

وبين أن تداريه لدفع شر لا تستطيع دفعه بغير ذلك، وأن تمدحه لتتال قربه.

وبين أن تستخدم مساحةً متاحة للإصلاح، وأن تستخدم الإصلاح ذريعةً لبناء مكانتك عنده.

والله يعلم الفرق الذي قد تخفيه العبارات.

النَّارُ الَّتِي تَمَسُّ الرَّائِينَ

قال تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾.

لم يشترط أن يصير الرائي فرعونًا كاملاً. يكفي أن يمنح الطغيان جزءاً من قلبه حتى يمسه من مصيره بقدر ما استحق.

إن النار التي أشعلها الظالم لا تسأل دائماً عن الشخص الذي بدأها؛ قد تمتد إلى الذين وضعوا حولها الحطب، أو وقفوا يحرسونها، أو أقنعوا الضحايا بأنها دفع.

وهذا يحمل أهل الفكر والكلمة مسؤوليةً خاصة. فالسلاح يجرح الجسد، لكن الكلمة قد تمنح السلاح ضميراً زائفاً. حين يكتب المثقف للظلم فلسفة، أو يمنحه الواعظ غطاءً دينياً، أو تصنع له وسائل الإعلام بطولته، لا يكون هؤلاء متفرجين؛ إنهم يعملون في مصنع الطغيان.

وقد يكون أثر المبرر أوسع من أثر المنفذ؛ لأن المنفذ يرتكب جريمةً واحدة، أما المبرر فيعيد تعريف الجريمة حتى يمكن تكرارها بلا مقاومة أخلاقية.

ثم تقول الآية: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾.

الذين ركنتم إليهم لأنكم ظننتم أن القوة عندهم لن ينصروكم حين يأتي أمر الله. لقد بعتم ولاية الله طلباً لحماية مخلوق، ثم اكتشفتم أن المخلوق لا يملك حماية نفسه.

من المؤلم أن يخسر الإنسان الحق ليكسب سنداً، ثم يخسر السند أيضاً.

الصَّلَاةُ: إِعَادَةُ الْقَلْبِ إِلَى اتِّجَاهِهِ

بعد الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون، يأتي الزاد الذي يحفظ القلب: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾.

الاستقامة ليست جهداً نفسياً منفصلاً عن مدد السماء. فالإنسان يضعف، وتتراكم على قلبه غبار الطريق، ويحتاج إلى مواعيد يعيد فيها ضبط بوصلته.

الصلاة عودة متكررة إلى المركز.

تقف بين يدي الله في أول يومك وآخره، وفي زلف من الليل، فتتذكر أن العالم الذي يضغط عليك ليس ربك، وأن الأصوات التي تطالبك بالتنازل لا تملك مصيرك، وأنتك مهما تفرقت بك الأشغال فلك قبلة واحدة.

في الصلاة تنزع عن كتفك ألقابك كلها. لا تدخل بوصفك قائداً أو غنياً أو مشهوراً؛ تدخل عبداً. وكل سجدة تهدم فرعوناً صغيراً يمكن أن ينمو في النفس.

من لا يسجد لله قد يسجد لنفسه من حيث لا يشعر.

ومن لا يعود إلى ميزان الصلاة، قد تميل به موازين السوق والسياسة والجمهور.

لكن الصلاة التي تحفظ الاستقامة ليست حركةً آليةً منفصلةً عن الحياة؛ ينبغي أن تخرج منها إلى الناس بقلب أقل طغيانًا، ويد أكثر أمانة، ولسان أصدق. إذا لم تغيّر الصلاة علاقتك بالخلق، فثمة معنى لم يبلغ بعد أعماقها فيك.

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

لا تعرض الآية الإنسان ككائن لا يزلّ، بل تفتح له طريق الإصلاح: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

قد تقع في خطأ، لكن الخطأ لا يجب أن يصبح هويةً نهائيةً. أسرع إلى حسنة تمحو أثره، وتوبة تصلح اتجاهك، وعمل خير يثبت صدق رجوعك.

إن الشيطان يريد من الزلة نتيجتين: المعصية أولاً، واليأس بعدها. فإذا لم يستطع أن ييقبك في الذنب، حاول أن يقنعك أن العودة لا تنفع.

لكن القرآن يقول: هناك طريق للإزالة.

الحسنة ليست تبريرًا للاستمرار في السيئة، بل حركة مضادة لها. والعبد الصادق لا يخطط للذنب اعتمادًا على أن الحسنة تمحوه؛ لأن هذا استخفاف بمن يعلم القلوب. إنما إذا غلبته نفسه، لم يسمح للعار أن يقطع صلته بالله.

توضاً من غبارك، وصلّ.

ردّ المظلمة.

اعتذر لمن آذيته.

اخفِ حسنةً لا يعلمها إلا الله.

املاً الموضع الذي مرّت فيه السيئة بعمل صالح.

فالقلب لا يُشفى بمجرد كراهية الجرح، بل بما يمدّه بالحياة.

وَاصْبِرْ

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

بعد الاستقامة والصلاة يأتي الصبر. فلا استقامة بلا زمن، ولا يمكن قطع الطريق كله بدفعة واحدة.

اصبر على الطاعة حين تفقد لذتها المؤقتة.

واصبر عن المعصية حين تقترب وتعرض عليك مكسباً سريعاً.

واصبر على الأذى حين لا يفهم الناس سبب تمسكك.

واصبر على تأخر الثمرة حين تزرع ولا ترى الحصاد.

واصبر على نفسك؛ فبناءها ليس قرار يوم واحد، بل مراجعات وسقطات ونهوض متكرر.

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).

قد يضيع عملك من ذاكرة الناس، وقد يُنسب فضله إلى غيرك، وقد تجده المؤسسة التي خدمتها، لكن الله لا يضيعه.

وهذا من أعرق مصادر الصبر: أن تنقل سجل عملك من أيدي البشر إلى علم الله.

الناس قد ينسون، أو يتعمدون النسيان، أو يعيدون كتابة القصة بما يناسب مصالحهم. أما عند الله فلا تسقط لحظة صدق، ولا دمعة كتمتها حتى لا تجرح أحداً، ولا كلمة حق قلتها وخسرت بسببها.

الإحسان لا يضيع، وإن ضاع الاعتراف به.

أُولُو بَقِيَّةٍ

ثم تنظر السورة إلى المجتمعات الهالكة وتسال: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ).

(أُولُو بَقِيَّةٍ): أصحاب فضل وعقل ودين، بقي فيهم من الخير ما يمنع المجتمع من الانحدار الكامل.

لا تحتاج الأمة إلى علماء يعرفون الفساد فقط، بل إلى بقية تنهى عنه. فالمعرفة التي لا تتحول إلى موقف تراقب الانهيار ولا تمنعه.

وقد تمتلئ المجالس بأشخاص يدركون الخلل، لكن كل واحد منهم ينتظر غيره ليتكلم. يخشى على موقعه، أو يوازن بين الحق ومصالحته، أو يقول إن الوقت غير مناسب. وحين يأتي الوقت الذي يراه مناسبًا، يكون الفساد قد صار هو الذي يحدد الأوقات.

إن «أولي البقية» ليسوا الأكثر ضجيجًا، بل الذين بقيت فيهم مناعة أخلاقية أمام الإغراء والخوف. لا يشترون الصمت بالمنصب، ولا يبيعون الحقيقة للجمهور، ولا يتركون المظلوم وحيدًا لأن نصرته مكلفة.

كل مجتمع يحتاج إلى هذه البقية.

أناس لا يأكلهم الترف.

ولا يخدرهم القرب من السلطة.

ولا يعميهم التعصب للجماعة.

يملكون ما يكفي من الاستقلال ليقولوا للناس: هذا فساد، ولو كان الفاعل من قومنا.

إنهم جهاز المناعة الأخلاقي في جسد الأمة. فإذا سكتوا، انتشر المرض دون مقاومة.

الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا أَثَرُوا فِيهِ

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَثَرُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

لم يتبعوا حجةً، بل اتبعوا ترفهم. فالمصلحة قد تتحول إلى قائد فكري، ثم يبحث العقل لها عن الأدلة بعد أن يكون القرار قد اتخذ.

الترف ليس مجرد امتلاك نعمة؛ فقد يملك المؤمن مالا ويشكره ويؤدي حقه. إنما الترف المذموم حالة تجعل النعمة سيدهً على صاحبها. يخشى فقدها أكثر مما يخشى فقد الحق، ويعيد تفسير الدين كي يضمن استمرارها.

المترف لا يقول غالباً: أرفض الحق لأنه يهدد امتيازاتي. يقول: هذا الخطاب غير واقعي، أو هذه المطالبة تثير الفتنة، أو الظروف لا تسمح بالعدل الكامل. تبدو الكلمات فكريةً، لكن خلفها مقعد مريح يخشى صاحبه أن يهتز.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

اتباع الترف لا يبقى ضعفاً شخصياً؛ يتحول إلى إجرام حين تُسحق حقوق الآخرين لحماية رفاه الفئة النافذة.

فكل ترف مبني على جوع مظلوم يحمل داخله جريمة.

وكل قصر قام على أجور مسروقة ليس بناءً محايداً؛ إنه ظلم تجمد في هيئة جدران.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

تضع الآية الإصلاح في موضع الحماية الحضارية. ما دام في المجتمع من يقاوم الفساد ويعيد الموازين إلى العدل، فهناك بقية حياة.

ولم تقل: وأهلها صالحون لأنفسهم فقط، بل: ﴿مُصْلِحُونَ﴾.

فالإصلاح الفردي الذي يعتزل فساد المجتمع لا يؤدي الوظيفة كلها. قد يحفظ صاحبه، لكنه لا يمنع السفينة العامة من الغرق إذا ترك الخرق يتسع.

المصلح لا يكتفي بأن يكون ميزانه مستقيماً؛ يحاول أن يمنع التطفيف من أن يصير نظاماً. ولا يكتفي بأن يكون بيته طاهراً؛ يدافع عن حق البيوت في الطهر. ولا يكتفي ألا يركن إلى الظالم؛ يكشف للناس خطر الركون.

ومع ذلك فالإصلاح ليس تسلطاً على الخلق، ولا تفتيشاً في سرائرهم. هو حماية للمعروف العام، وردّ للظلم، وبناء للوعي، وتقديم للقذوة.

ثم إن الله لا يهلك القرى ظلماً؛ فهو سبحانه العدل. لا يؤاخذ أمةً بلا حجة، ولا يسوي بين المصلح والمفسد، ولا يضع العقوبة في غير موضعها.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

الاختلاف واقع داخل دائرة مشيئة الله الكونية. كان قادرًا أن يجعل الناس على حال واحدة قهراً، لكنه خلقهم للابتلاء، ومنحهم إرادة يقع بها الإيمان والكفر والطاعة والمعصية.

لا يعني ذلك أن الحق متعدد بتعدد الأهواء، ولا أن كل اختلاف محمود. إنما يعني أن وجود المخالف ليس مفاجأة تهدم ثقة المؤمن بطريقه.

سيظل الناس مختلفين، لأن العقول والأهواء والاستجابات تختلف. والمهمة ليست أن يحول المؤمن العالم كله إلى نسخة منه بالقهر، بل أن يبلغ الحق ويقيم العدل ويهدي بالتالي هي أحسن.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾.

الرحمة تجمع القلوب على الوحي، لا على العصبية. وقد يختلف أهل الإيمان في اجتهادات بشرية، لكن مرجعهم الواحد يمنع الاختلاف من أن يتحول إلى معبود.

حين تغيب الرحمة، يصبح الاختلاف سبباً للتباغض والافتراس. لا يعود الإنسان يريد الوصول إلى الحق، بل يريد هزيمة الآخر. وتتحول الفكرة من نافذة إلى جدار، ومن وسيلة للفهم إلى راية للهوية المتعصبة.

إن رحمة الله لا تلغي التنوع البشري، بل تهذبه؛ تجعل الاختلاف مساحةً للتعارف والاجتهاد، لا مبررًا للظلم والبخس.

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

الحرية ليست بلا نتيجة. منح الله الإنسان الاختيار، لكنه لم يجعل الخيارات متساوية المصير. من أصر على طريق الغواية بعد قيام الحجة، فله عاقبته. إن الجحيم ليس تفصيلًا زائدًا في تصور الكون؛ إنه شهادة على جدية الأخلاق. فالظلم والرحمة، والخيانة والأمانة، وقتل الأبرياء وإغاثتهم، لا يمكن أن تنتهي جميعًا إلى نتيجة واحدة.

لو تساوى فرعون وموسى في المصير، لفقد العدل معناه.

ولو انتهى من أورد قومه النار ومن قادهم إلى النجاة إلى مكان واحد، ل صار التاريخ عبثًا.

لكن كلمة الله تمت، والميزان قائم، وكل طريق يحمل نهايته.

مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ

ثم تكشف السورة الغاية الكبرى من القصص: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

لم يقل: ما نتقف به عقلك فقط، بل: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

فالمعرفة القرآنية ليست معلومات باردة؛ إنها قوة تدخل القلب عند اهتزازه. كان رسول الله ﷺ يعرف أن الله ناصره، لكنه بشر يواجه التكذيب والأذى وفقد الأحبة، فجاءته قصص إخوانه الأنبياء لتقول له: لست أول السائرين في هذا الطريق.

نوح سُخر منه.

وهود هُدد.

وصالح خيَّب في زعم قومه رجاءهم فيه.

ولوط عاش وحشة الطهر.

وشعيب استُضعف.

وموسى وقف أمام فرعون.

ثم كانت العاقبة للمتقين.

إن القلب يثبت حين يعرف أن ألمه ليس علامةً على خطأ الطريق، بل قد يكون جزءاً من طبيعة الطريق نفسه. ويثبت حين يرى أن الوجوه تتغير لكن سنة الله لا تتغير. ويثبت حين يدرك أن المؤمنين قبله مروا من الموضع الذي يقف فيه الآن ثم عبروا.

القصص القرآني يمنح المؤمن ذاكرةً أوسع من تجربته. فلا يعود وحيداً داخل لحظته؛ يقف خلفه موكب من الأنبياء والصالحين.

حين يسخر الناس من سفينته، يتذكر نوحاً.

وحين تخدعه القوة، يتذكر عاداً.

وحين يُطلب منه عقر آيةٍ لحماية المصلحة، يتذكر ثمود.

وحين يشعر بالغرابة الأخلاقية، يتذكر لوطاً.

وحين يرى البخس نظاماً، يسمع شعيباً.

وحين يرتفع صوت الطاغية، يرى موسى واقفاً بعصاه.

هذه ليست استعارةً من الماضي فحسب؛ إنها معية معنوية ترد إلى القلب اتزانها.

الْحَقُّ وَالْمَوْعِظَةُ وَالذِّكْرَى

قال تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

في القصص حق، فلا يقوم على الأسطورة والتخمين.

وفيه موعظة، فلا يُروى للتسلية وحدها.

وفيه ذكرى، لأن الإنسان يعرف كثيرًا ثم ينسى، ويحتاج إلى أن تعود الحقيقة إليه في صورة تهز القلب.

الموعظة ليست صراخًا يضغط على النفس، بل معنى يرى الإنسان نفسه في مرآته. حين يقرأ عن ابن نوح، يسأل عن جبله. وحين يقرأ عن مدين، يراجع ميزانه. وحين يسمع النهي عن الركون، يفتش في علاقته بالقوة.

أما إذا خرج من القصة وهو لا يتحدث إلا عن خطايا الأقسام الماضية، فقد وضع المرآة أمام الموتى ورفض أن يرى وجهه فيها.

القرآن لا يروي لك انحرافاتهم لتشعر بالتفوق عليهم، بل لتحذر من البذرة التي أنبتتهم وهي قابلة للنمو فيك.

في كل نفس شيء يمكن أن يصبح فرعونًا إذا مُنح سلطة بلا تقوى.

وشيء يمكن أن يصبح ابن نوح إذا وثق بالسبب أكثر من الله.

وشيء من مدين إذا وجد فرصةً لنقص حق لا يستطيع صاحبه الدفاع عنه.

وشيء من ثمود إذا أصبحت المصلحة أئمن من الآية.

والذكرى هي أن تكتشف البذرة قبل أن تصير حضارة كاملة من الضلال في داخلك.

اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۝ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾.

بلغ الجدل نهايته. الحق واضح، والتاريخ شاهد، والإنذار قائم. فليعمل كل فريق وفق الطريق الذي اختاره، وستظهر العاقبة.

ليس في الآية دعوة إلى السلبية، بل إعلان ثقة. المؤمن لا يتوقف لأن الآخرين رفضوا الإيمان. لا يجعل كل طاقته رهينة لإقناع من أغلق قلبه؛ يمضي في بناء سفينته، وإقامة ميزانه، وإصلاح ما استطاع.

﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾.

الإيمان عمل، لا انتظار مجرد.

نعمل ولو سخرنا.

ونصلح ولو فسد السوق.

ونقيم الصلاة ولو اضطرب العالم.

ونقول الحق ولو علا صوت فرعون.

ثم ننتظر، لا انتظار العاجز، بل انتظار من أدى ما عليه ووثق بموعد الله.
هناك فرق بين انتظار يستهلك الزمن، وانتظار يبني خلاله الإنسان أدوات النجاة.

نوح انتظر الطوفان وهو يصنع الفلك.

والمؤمن ينتظر وعد الله وهو يعمل له.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

تختم السورة بهذا الأفق: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

بعد قصص التاريخ، تعيدك السورة إلى مالك التاريخ.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أنت لا تعرف الغد، ولا تعرف أي بذرة ستنبت، ولا متى يأتي الماء، ولا أين تكون نهاية الطريق. وهذا الجهل ليس نقصاً يمكن للإنسان أن يزيله كله؛ إنه جزء من عبوديته.

لكن الغيب الذي تجهله ليس ضائعاً. هو الله.

وما دام لله، فلا ينبغي أن يتحول جهلك به إلى رعب. أنت لا تعرف، لكن ربك يعلم. لا ترى ما وراء الموج، لكنه يرى الشاطئ. لا تعرف كيف يأتي الفرج، لكنه يملك الجهات كلها.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ).

كُلُّهُ، لا بعضه.

أمر الأرزاق.

وأمر القلوب.

وأمر الطغاة.

وأمر الدعوات.

وأمر الحضارات.

وأمر الظلم الذي لم يُنصف صاحبه في الدنيا.

كل خيط يعود إلى يده سبحانه، كما يليق بجلاله، فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره.

ثم جاءت ثمرة المعرفة: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ).

اعبده؛ لأنه المستحق وحده.

وتوكل عليه؛ لأن الأمر كله راجع إليه.

العبادة تمنحك الاتجاه، والتوكل يمنحك القدرة على مواصلة السير حين يختفي الطريق.

العبادة بلا توكل قد تتحول إلى جهد قلق، يشعر صاحبه أنه يحمل الكون على كتفيه.

والتوكل بلا عبادة قد يتحول إلى أمنية كسولة.

أما اجتماعهما فيصنع الإنسان المستقيم: يعمل لأنه عبد مأمور، ويطمئن لأنه يعلم أن النتيجة ليست إلهاً يعبد.

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

هذه خاتمة تحمل الإنذار والعزاء معاً.

إنذار للظالم: لست منسياً، وإن غاب عنك العقاب.

وعزاء للمظلوم: لست منسياً، وإن غاب عنك الإنصاف.

إنذار للمرائي: يعلم العمل وما وراءه.

وعزاء للمخلص: يرى الحسنة وإن خفيت.

إنذار لمن ركن إلى القوة.

وعزاء لمن وقف وحده مع الحق.

الله ليس غافلاً عن لوح وضعه نوح في سفينته.

ولا عن كلمة قالها هود أمام قومه.

ولا عن الناقة حين امتدت إليها اليد.

ولا عن ضيق لوط وهو يحمي ضيفه.

ولا عن حق صغير نقصه أهل مدين.

ولا عن رجل من قوم فرعون كتم إيمانه ثم نطق.

ولا عن قلب في آخر الزمان يقرأ هذه القصص ويحاول أن يبقى مستقيماً.

الخُرُوجُ مِنَ السُّورَةِ

نخرج من سورة هود، لكننا لا نخرج من امتحانها.

ففي الطريق أمواج، وجبال تعد بالعصمة، وأسواق تميل فيها الموازين، ومدن تستوحش من الطهر، وسلطات تطلب من الناس أن يسلموا إليها ضمائرهم.

وفي الطريق أيضاً سفن تُبنى، ومصلحون يقولون: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾، وقلوب تعرف أن ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، ووجوه تسجد في طرفي النهار وزلفاً من الليل كيلا تميل بها العاصفة.

لم تعد الاستقامة بعد هذه السورة كلمةً هادئةً سهلة. صارت أن تبني حين يسخرون، وأن تقي حين يطففون، وأن تطهر حين يهرعون إلى الفاحشة، وأن ترفض أمر فرعون حين يتبعه الملاء، وأن ترحم الناس دون أن تغيّر الحق من أجلهم.

الاستقامة أن تعرف أن الطريق ليس مستقيمًا لأن حوادثه مريحة، بل لأن نهايته إلى الله.

قد يتلوى الموج تحت السفينة، لكن وجهتها مستقيمة.

وقد يطول الليل على لوط، لكن الصبح قريب.

وقد يبدو فرعون في المقدمة، لكن موسى هو الذي يعرف طريق النجاة.

وقد يبقى الظلم قائمًا زمانًا، لكن الله ليس غافلًا.

لهذا لم تقل السورة: فانتصر كما تريد.

ولم تقل: فاجمع الناس حولك.

ولم تقل: فاجعل الطريق خاليًا من الألم.

قالت كلمةً واحدة تحمل تكليف العمر كله: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ).

فإذا استقيمت، فلا يضرّك أن يموج العالم من حولك؛ لأن النجاة لم تكن يومًا في سكون البحر.

كانت النجاة دائماً في أن تبقى السفينة متجهةً إلى الله.

الخاتمة

مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ

لماذا قصَّ الله علينا أخبار المرسلين؟

ليست سورة هود كتابًا في سقوط الأمم فحسب؛ إنها كتاب في بقاء القلب.

تمرّ بنا الحضارات واحدةً بعد أخرى: قوم نوح يبتلعهم الماء، وعاد تقتلعها الريح، وثمود تأخذها الصيحة، وقرى لوط ينقلب عاليها سافلها، ومدين تصبح كأن لم تغن بالأمس، وفرعون يتقدم قومه إلى النار. وفي مقابل هذا الزوال كله، يبقى شيء واحد لا تسقطه الأمواج ولا تهدمه الصيحات:

القلب الذي عرف الله واستقام له.

كأن السورة تسأل الإنسان: حين تنهار الأشياء من حولك، ما الذي يبقى فيك؟ حين تفقد بيتًا، أو سندًا، أو مكانةً، أو أملًا عشت طويلاً من أجله؛ هل ينهار إيمانك مع ما انهار؟ أم تكتشف أن في داخلك أرضًا لم تكن تقيم فوق عطايا الدنيا، بل فوق معرفة الله؟

لقد جاءت القصص لتبني هذه الأرض.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

لم يقل: ما نثبت به قدمك، بل: (فُؤَادَكَ). لأن القدم لا تثبت طويلاً إذا انهار القلب. وقد يقف الإنسان في مكانه جسداً، بينما يكون قد انسحب من مبادئه في الداخل. وربما يواصل الكلام عن الحق، لكن روحه لم تعد تصدق أن الثبات ممكن.

فجاء القرآن إلى موضع المعركة الحقيقي.

إلى الفؤاد.

التَّثْبِيثُ لَا يَعْنِي غِيَابَ الْإِهْتِرَازِ

ليس القلب الثابت قلباً لا يشعر. الأنبياء أنفسهم خافوا، وضاعت صدورهم، وتألّموا، وحزنوا على أقوامهم وأهليهم.

أوجس إبراهيم خيفة.

وضاق لوط بضيفه ذرعاً.

ونادى نوح ابنه من قلب الموج.

وقال شعيب لقومه: (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ).

والنبي محمد ﷺ كان يضيق صدره بما يقول المشركون.

لم ينزع الوحي عنهم إنسانيتهم، وإنما منع الألم من أن ينتزع منهم اتجاههم.

وهذا هو الثبات: ليس ألا تهتز، بل ألا تنكسر بوصلتك حين تهتز.

أن تخاف، لكنك لا تركض إلى الجبل الخطأ.

وأن تحزن، لكنك لا تحوّل الحزن إلى اعتراض على حكمة الله.

وأن يضيق صدرك، لكنك لا تترك بعض ما أُوحي إليك طلباً لرضا الناس.

وأن تتأخر الثمرة، لكنك لا تستبدل البذرة.

إن الشجرة الثابتة لا تكون بلا حركة؛ تحركها الريح، لكن جذورها تمنعها من الرحيل مع الريح.

وكذلك المؤمن. قد تحركه الأحداث، وقد تعصره المحن، لكن أصل اليقين يبقى ممسكاً به في تربة العبودية.

حِينَ تَتَكَرَّرُ الْوُجُوهُ الْقَدِيمَةُ

لا تنتهي قصص سورة هود بانتهاء أقوامها؛ لأن النماذج التي عرضتها تعود في البشر.

ليس ضرورياً أن يعود طوفان نوح بالصورة ذاتها، لكن منطق ابنه يتكرر كلما قال الإنسان: عندي من الأسباب ما يغنيني عن الله.

ولا يلزم أن تعود عاد بأسمائها، لكنها تعود كلما قالت حضارة: من أشد منا قوة؟

وتعود ثمود كلما رأى المجتمع آيةً أو حقًا واضحًا، ثم قرر ذبحه لأنه يزاحم مصالحه.

ويعود قوم لوط كلما صار المنكر علنًا، ثم انتقل من طلب التسامح معه إلى اضطهاد من يرفضه.

وتعود مدين كلما تحولت السوق إلى إله، وأصبح الربح مبررًا للبخس.

ويعود فرعون كلما رأى الحاكم الناس درجات في سلم مجده، وأصبح أمره أعلى في نفوسهم من الحق.

ليست القصص إذن مرايا للماضي فقط. إنها أسماء للأمراض حين تظهر في الحاضر.

والقارئ الذي يسأل: أين عاد اليوم؟ قد يبتعد عن غاية السورة إذا لم يسأل أولاً: أين شيء من عاد في نفسي؟

هل أتغير حين أملك القوة؟

هل أزدرى من لا يملك مكانة؟

هل أقبل الحق إذا جاء على لسان ضعيف؟

هل أزن القريب والخصم بميزان واحد؟

هل أؤدي حق الإنسان حين أستطيع بخسه دون أن يراني أحد؟

إن الطغاة الكبار لا ينبتون فجأةً من فراغ؛ تبدأ بذرتهم في نفوس صغيرة لم تتعلم العدل حين مُنحت مساحةً محدودة من السلطة.

قد يكون للإنسان فرعونه داخل بيته، حين يطلب الطاعة ولا يقبل النصيحة.

وقد تكون له مدينه في عمله، حين يأخذ جهد الآخرين وينسبه إلى نفسه.

وقد تكون له ثموده، حين يعقر معنى يعرف قدسيته حمايةً لمصلحة.

وقد يكون له جبل ابن نوح، حين يثق بعلاقاته أكثر من ثقته بربه.

إن قراءة السورة تبدأ من التاريخ، لكنها ينبغي أن تنتهي إلى محاسبة النفس.

النَّجَاةُ لَيْسَتْ دَائِمًا فِي الْمَكَانِ الْأَقْوَى

من أكثر الصور حضورًا في سورة هود صورة السبب الذي يخدع صاحبه.

الجبل قوي، لكنه لم يُنقذ ابن نوح.

بيوت ثمود منحوتة في الصخر، لكنها لم تمنع الصيحة.

قوة عاد لم تمنع الريح.

جموع قوم لوط لم تستطع أن تبلغ لوطًا حين قيل: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

رھط شعيب لم يكن أصل نجاته.

وجنود فرعون لم يفتحوا له طريقًا في البحر.

تقلب السورة موازين القوة الظاهرة؛ لا لتقول إن الأسباب لا قيمة لها، بل لتقول إن قيمتها ليست ذاتية. السفينة سبب، والجبل سبب؛ لكن السفينة حملها أمر الله، والجبل استعمل هرباً من أمره.

قد يكون الشيء ضعيفاً في ذاته ثم تقويه البركة.

وقد يكون عظيمًا في أعين الناس ثم تسلبه إرادة الله وظيفته.

فلا تحتقر سبباً أذن الله لك فيه لصغر حجمه، ولا تؤلّه سبباً لكثرة ما ترى فيه من القوة.

وإذا أغلقت الدنيا أبوابها، لا تقل: انتهت النجاة. قل: انتهت الأبواب التي أعرفها.

والفرق بين العبارتين هو الفرق بين اليأس والإيمان.

اليأس يحصر قدرة الله في تجربته.

أما المؤمن فيعرف أن خزانة الممكنات عند الله لا تقف عند حدود خياله.

السَّفِينَةُ تُبْنَى قَبْلَ الطُّوفَانِ

تعلمنا قصة نوح أن النجاة تحتاج إلى استعداد يسبق لحظة الخطر. لا يُبنى الإيمان كاملاً عند أول موجة، كما لا تُصنع السفينة بعد أن تختفي اليابسة.

تُبنى السفينة في الأيام الهادئة.

في صلاةٍ ظننت أنها عابرة، وهي تثبت لوحًا في قلبك.

وفي كلمة حق قلتها على نفسك، وهي تدرب روحك على ألا تتبع ميزانها.

وفي مال حرام تركته رغم حاجتك، وهو يغرس فيك الثقة بأن بقية الله خير.

وفي لحظة عفوت فيها وأنت قادر، وهي تمنع القوة من أن تتحول فيك إلى عاد.

وفي اعتذار قدّمته حين أخطأت، وهو يكسر فرعونًا صغيرًا كان يريد أن ينمو في داخلك.

كل طاعة لوح.

وكل مجاهدة مسمار.

وكل ذكر طلاء يحفظ الخشب من ماء الغفلة.

فإذا جاء الطوفان، حملك البناء الذي كنت تصنعه في الخفاء.

لهذا لا يحتقر المؤمن أعماله الصغيرة. قد تكون ركعتان في ظلمة الليل هما ما يحفظ قلبه في نهار الفتنة. وقد تكون صحبة صالحة لم ير أثرها الآن هي التي تناديه حين يقترب من جبل الغرور.

إن الأزمات لا تخلق كل ما فينا؛ إنها تكشف ما بنيناه قبلها.

لَا تُرَاهِنُ عَلَى الْكُثْرَةِ

في السورة كان أتباع نوح قليلين، وهود يواجه أمةً شديدة، ولوط يسأل: (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ؟)، وشعيب يرى ضعيفًا، وموسى يقف أمام ملك مصر.

الحق في هذه المشاهد لم يكن صاحب العدد الأكبر.

ولو كانت الحقيقة تُنتخب بالكثرة، لكان الأنبياء في مواطن كثيرة مخطئين. لكن القرآن يحرر القلب من وهمٍ شديد السيطرة: أن اجتماع الناس على موقف يمنحه العصمة.

قد تجتمع جماعة كبيرة على الخوف.

وقد تصنع الدعاية إجماعًا ظاهريًا.

وقد يسكت المخالفون، فيظن الطاغية أن صمتهم إيمان.

وقد تتكرر الكذبة حتى يشعر الفرد أن الشك فيها خروج عن العقل.

لكن الحقيقة لا تتغير بعدد الذين أنكروها.

هذا لا يعني أن القلة دليل الحق أيضًا؛ فقد تكون القلة ضالةً كما تكون الكثرة. المعيار هو البينة من الله، لا العدد في ذاته. لكن المؤمن لا يسمح للكثرة أن تكون حجةً مستقلةً على ضميره.

يسمع الناس، وينتفع بخبراتهم، ويراجع نفسه، ولا يتكبر عن التصحيح؛ ثم يزن ذلك كله بميزان الحق.

فالاستقلال عن الجمهور ليس غرورًا، بل مسؤولية. والفرق بينهما أن المغرور يرفض مراجعة نفسه لأنه يعظم ذاته، أما المؤمن فيرفض عبادة الكثرة لأنه يعظم الحق.

الرَّحْمَةُ فِي قَلْبِ الْإِنْدَارِ

مع أن سورة هود تمتلئ بمشاهد العذاب، فإن الرحمة تجري في أعماقها كالنهر.

نوح يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

وهود يدعو قومه إلى استغفار يجلب المطر ويزيد القوة.

وصالح يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

وشعيب يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

وإبراهيم يجادل في قوم لوط مع عظم جريمتهم.

والنجاة في قصص السورة تتكرر مرتبطة بالرحمة: ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾.

العذاب ليس رغبةً في تعذيب الخلق؛ تعالى الله عن ذلك. لقد سبقته رسالات، وإنذارات، وآيات، ومهل، وأبواب للتوبة. وكل نبي كان يقف بين قومه وبين النهاية، يناديهم أن يعودوا.

إن السفينة كانت تُبنى أمام من سيغرقون.

والناقة كانت آيةً ظاهرة.

وشعيب دعاهم إلى الاستغفار بعد أن حذرهم من مصائر الأمم.

ولوط عرض على قومه طريق الطهر حتى اللحظة الأخيرة.

لكن الرحمة لا تلغي عدل الله، كما أن العدل لا ينفي رحمته. وإذا صار الشر عدوانًا يلتهم الحياة ويرفض كل إصلاح، كان إيقافه رحمةً بمن سحقهم، ورحمةً بالفطرة التي يريد أن يمحوها.

إن المجتمع الذي يطلب رحمةً بلا عدل يطلب بقاء الظلم بلا نهاية.

مَأْسَاءُ الْإِنْسَانِ حِينَ يَعْرِفُ وَلَا يَسْتَجِيبُ

لم يكن أقوام السورة جميعًا يفتقرون إلى البيان. جاءتهم الرسل من أنفسهم، وتكلموا بلغتهم، وذكرهم بآلاء الله، وأقاموا لهم الحجج.

كانت المشكلة في كثير من الأحيان فجوةً بين المعرفة والإرادة.

قوم هود قالوا بوضوح: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾.

وثمود رأوا الناقة ثم عقروها.

وقوم لوط قيل لهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

وأهل مدين فهموا أن صلاة شعيب تأمرهم بالعدل، لكنهم رفضوا أن يدخل الدين في أموالهم.

وفرعون رأى الآيات، لكنه رأى في التسليم سقوط عرشه.

إن الإنسان لا يضل دائماً لأنه لم ير الطريق. قد يضل لأنه رأى الطريق وعرف أن السير فيه سيطلبه بالتخلي عن شيء يحبه.

لهذا يحتاج الإيمان إلى شجاعة. فمعرفة الحق عمل عقلي، أما قبول تبعاته فعمل أخلاقي. قد يقتنع العقل، ثم تقف المصلحة عند الباب وتمنع القرار.

ومن هنا تأتي التوبة: ليست إضافة معلومة جديدة فقط، بل تحرير الإرادة من الأسر الذي جعلها ترفض ما عرفت.

الْحَقُّ الَّذِي يَدْخُلُ السُّوقَ وَالْبَيْتَ وَالْقَصْرَ

تكشف سورة هود شمول التوحيد للحياة.

دخل التوحيد إلى السفينة، فحدد من يركبها وعلى أي اسم تجري.

ودخل إلى الحضارة، فسأل عاداً عن معنى قوتها.

ودخل إلى موارد الأرض، فجعل للناقة حقاً لا يجوز الاعتداء عليه.

ودخل إلى البيت، فحفظ حرمة الضيف والطهر.

ودخل إلى السوق، فأقام المكيال والميزان.

ودخل إلى القصر، فواجه أمر فرعون وسأل عن رثده.

فليس في الحياة ركن يحق له أن يقول للوحي: قف عند الباب.

إذا بقي الدين في الشعائر وحدها، استطاع الظلم أن يصلي ثم يعود إلى عمله مطمئناً. لكن صلاة شعيب نفسها أثارت سؤال قومه: (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ؟).

نعم؛ الصلاة تأمر.

لا بوصفها صوتاً منفصلاً، بل لأنها تعيد صلة الإنسان بربه، ومن عرف أنه عبد لم يملك أن يتصرف في الخلق والأموال كما يشاء.

إن عبادة لا تصل إلى الميزان عبادة لم يكتمل أثرها.

وتوحيداً لا يحرر الإنسان من طاعة فرعون لم يدخل بعد إلى السياسة.

وإيماناً لا يحفظ كرامة الضيف والضعيف لم يتحول إلى خلق.

لا يريد القرآن متديناً يقيم لله وقتاً محدوداً ثم يجعل بقية حياته للهوى؛ يريد إنساناً تصبح الحياة كلها عنده مجالاً للعبودية.

الِاسْتِقَامَةُ بَيْنَ النُّقْصَانِ وَالطُّغْيَانِ

جمعت الآية بين أمرين: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾.

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾.

فالانحراف لا يكون بالتفريط وحده؛ قد يكون بالزيادة أيضاً. ويمكن للإنسان أن يترك الحق خوفاً، ويمكن أن يتجاوز الحق غضباً.

الطريق المستقيم دقيق؛ لا يميل إلى التنازل الذي يفرغ الدين، ولا إلى الغلو الذي يحمله ما ليس منه.

قد يدفعك حب الرحمة إلى إسقاط الحدود، فتميل.

وقد يدفعك حب الحق إلى ظلم المخالف، فتطغى.

وقد يجعلك خوف الفتنة تصمت عن الظلم، فتتحرف.

وقد يجعلك الغضب من الظلم تنسب إلى الناس ما لم يفعلوا، فتتجاوز.

الاستقامة أن يبقى الله هو الذي يحدد موضع قدمك، لا ردود أفعالك.

إنها ليست منتصفاً حسابياً بين الحق والباطل، بل وقوف كامل مع الحق على الصفة التي أمر الله بها. قد يبدو هذا الموقف شديداً عند قوم، وليناً عند آخرين؛ لأن المعيار ليس انطباعاتهم، بل الأمر.

ولهذا يحتاج المستقيم إلى علم يريه الحدود، وتقوى تمنعه من تجاوزها،
وصبر يبقيه عليها حين تضغط الحياة.

لَا تَرْكُنُوا

من أشد آيات السورة يقظة للضمير: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

فالإنسان قد يرفض أن يكون ظالمًا، لكنه يقبل أن يستظل بالظلم. يقول: لم
أشارك، وإنما انتفعت. ولم أكتب الأمر، وإنما نفذته. ولم أؤذِ المظلوم، وإنما
سكتُ كي أحفظ نفسي.

لكن الظلم شبكة، وكل خيط فيها يمنحها قوة.

لا يطلب منك الطاغية دائمًا أن تحمل سلاحه؛ ربما يكفيه أن تحمل روايته.

ولا يطلب منك أن تكذب صراحةً؛ ربما يريدك أن تصمت حين تصبح الحقيقة
محتاجةً إلى صوتك.

ولا يطلب منك أن تحبه؛ يكفيه أن تربط رزقك وصورتك ببقائه، حتى تدافع
عنه دفاعك عن نفسك.

الركون يبدأ صغيرًا: مجاملة، ثم تبرير، ثم مصلحة، ثم خوف من فقد
المصلحة، ثم عجز عن تخيل الحياة خارج ظل الظالم.

وفجأة يكتشف الإنسان أنه لم يعد يقترب من الظلم فقط؛ لقد صار الظلم يسكن
طريقته في رؤية الأشياء.

لهذا جاء النهي قبل أن يكتمل التحول.

احذر الميل الأول.

فالشجرة الكبيرة بدأت بانحناء صغيرة نحو الضوء الكاذب.

أَقِمِ الصَّلَاةَ

كيف يقاوم القلب كل هذا الضغط؟

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.

الصلاة ليست انسحابًا من معركة الحياة، بل موضع إعادة التسليح بالمعنى. يدخلها الإنسان وقد بعثرتة الأسواق والخصومات والأخبار، فيخرج منها وقد تذكّر الأصل.

في السجود تنقلص أحجام الطغاة؛ لأن الجبهة لا تتحني إلا لله.

وفي التكبير تسقط الآلهة الصغيرة؛ فالله أكبر من المال، وأكبر من الجمهور، وأكبر من الخوف، وأكبر من الألم.

وفي الفاتحة يطلب العبد الهداية إلى الصراط المستقيم؛ لأنه يعلم أنه لا يملك الاستقامة من ذاته.

الصلاة تضع القلب مراتٍ في اليوم على خط المعايير. فالروح مثل بوصلة تتعرض لمجالات كثيرة تحاول جذبها؛ تحتاج إلى أن تعود إلى الشمال الحقيقي.

ومن ترك قلبه طويلاً بلا ذكر، قد لا يشعر بانحرافه؛ لأن الميل يحدث ببطء. ثم يستيقظ ذات يوم فيجد نفسه يدافع عما كان ينكره، ويكره من كان يشبهه، ويعيش في موضع لم يتخيل أنه سيصل إليه.

الصلاة تقطع هذا الانحدار المتدرج، وتقول للإنسان: قف. أين أنت؟ وإلى أين تمضي؟

أُولُو بَقِيَّةٍ: الضَّمِيرُ الَّذِي يَحْمِي الْأُمَّةَ

لم تكن الأمم الهالكة خاليةً بالضرورة من أناس يعرفون بعض الحق، لكنها افتقدت القوة الأخلاقية المنظمة التي تنهى عن الفساد.

(قُلْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ).

الأمّة لا يحفظها الصالحون الصامتون وحدهم، بل المصلحون الذين يحولون صلاحهم إلى موقف.

فالمعرفة إذا خافت فقدت وظيفتها.

والعلم إذا صار طريقاً إلى الموائد لا إلى قول الحق، دخل في بناء الفساد بدل مقاومته.

والأديب الذي يرى المعنى يُذبح ثم يكتفي بتجميل اللغة حول الجريمة، قد حفظ فنه وخذل رسالته.

والمفكر الذي يكتشف الخل ثم يخفيه لأن الإعلان يهدد مكانته، أصبح عقله خادماً للترف الذي ينبغي أن يكشفه.

أولو البقية ليسوا أناساً بلا خوف، بل أناساً لم يجعلوا خوفهم قائداً.

وقد يكونون قليلين؛ فالسورة تقول: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾. لكن القليل الذي يحمل ضميراً حياً هو بذرة النجاة، كما كان ركاب السفينة القليلون بذرة عالم جديد.

لا تحتقر نفسك لأن صوتك واحد، لكن لا تتوهم أيضاً أن الصوت وحده يكفي. كن صادقاً، عالماً، حكيماً، عاملاً، وادفع من نفسك ثمن الكلمة قبل أن تطلب من الناس دفعه.

لِمَاذَا كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ؟

تكرر في السورة حقيقة العاقبة. لكن لماذا تكون للمتقين، مع أن غيرهم قد يملكون أسباباً أكثر؟

لأن الباطل يحمل عنصر فنائه داخله.

الظلم يولد المقاومة.

والكذب يحتاج في كل يوم إلى كذب جديد يحميه.

والطغيان يعزل الحاكم عن الحقيقة حتى يتخذ القرارات التي تهدم سلطانه.

والبخس يهدم الثقة التي تحتاجها السوق كي تبقى.

والانحراف حين يطارد الفطرة يفسد بنية المجتمع التي تقوم عليها الحياة.

أما الحق، فقد يتأخر ظهوره، لكنه منسجم مع فطرة الإنسان وسنن العدل. وحين يصبر أهله ويحسنون حمله، يكونون أقرب إلى البقاء من بناء ضخم يأكل أساسه.

لكن العاقبة لا تعني دائماً أن يرى المؤمن في حياته انتصاره الدنيوي كما تخيله. قد يموت قبل الفتح، أو يُقتل، أو يعيش مظلوماً. إلا أن قصته لا تنتهي عند قبره. العاقبة الكاملة في الآخرة، وقد يظهر شيء منها في الدنيا بحفظ الذكر، أو امتداد الأثر، أو سقوط الباطل بعد غياب صاحبه.

العاقبة للمتقين لأن الله كتبها، لا لأن حساباتهم أقوى من حسابات خصومهم.

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

تضع خاتمة السورة كل القصص والأزمات في جملة واحدة: (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ).

ما أجمل كلمة (كُلُّهُ) للقلب المتعب!

الأمر الذي فهمته، والذي لم تفهمه.

ما حصلت عليه، وما سلب منك.

دعوة رأيت ثمرتها، وكلمة دفنتها القسوة في ظاهر الأمر.

ظالم مات بلا محاكمة، ومظلوم مات بلا إنصاف.

ابن دعوته ولم يستجب، وقوم بذلت لهم ولم يؤمنوا.

كل ذلك يرجع إلى الله.

ليس شيء منه متروكًا في فراغ.

إن الإنسان يتعب لأنه يريد أن يغلق كل الملفات بيده، وأن يرى العدل كاملاً في توقيته، وأن يعرف الحكمة قبل أن يطمئن. لكن السورة تعلمه أن بعض السكينة لا يأتي من امتلاك الأجوبة، بل من معرفة مَنْ يملكها.

ليس عليك أن تدير الغيب.

ولا أن تحمل العالم.

ولا أن تفتح القلوب.

عليك أن تعبد، وتتوكل، وتستقيم، وتصلح ما استطعت.

أما الأمر كله، فإليه يرجع.

فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ

بعد كل ما عُرض من تاريخ الأمم، لم تأت الخاتمة بأمر معقد: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

هذه خلاصة الطريق.

واعبده حين يعطيك، فلا تتحول النعمة إلى فخر.

واعبده حين يمنعك، فلا يتحول المنع إلى يأس.

واعبده حين تكون قليلاً، فلا تشتتر الكثرة بالتنازل.

واعبده حين تمتلك القوة، فلا تتحول إلى عاد.

واعبده في السوق، فلا تصبح من مدين.

واعبده في بيتك، فلا تنفصل الأخلاق العامة عن الرحمة الخاصة.

واعبده أمام السلطان، فلا تتبع أمر فرعون.

وتوكل عليه حين تبني السفينة ولا ترى ماءً.

وحين تنادي من تحب ولا تستطيع أن تحمل قلبه.

وحين تضيق بك المدينة ولا تجد ركنًا من البشر.

وحين تؤدي الحقوق ويخبرك الطمع أنك ستفقد مالك.

وحين تقول الحقيقة، فتغلق عليك أبوابًا كنت تظن أن رزقك وراءها.

العبادة تصح وجهتك.

والتوكل يمنعك من الانهيار بسبب طول الطريق.

وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ

آخر ما تضعه سورة هود في قلب قارئها: (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

إذا ظلمك الناس ثم نسوا، فالله لم ينس.

وإذا أحسنت إليهم ثم جحدوا، فالله رأى.

وإذا قاومت فسادًا لم ينتبه إليك أحد، فالعمل لم يغب.

وإذا وضعت لوحًا صغيرًا في سفينة نجاة لا يزال الناس يسخرون منها، فهو محفوظ.

وإذا ملت إلى الظالم خفيةً، وعرفت كيف تجمل ميلك، فهو مكشوف.

وإذا طففت في ميزان لا يراقبه مفتش، فالله بصير.

وإذا ندمت في جوف الليل ولم يسمع بكاءك أحد، فهو قريب مجيب.

ليست مراقبة الله جدار خوف فقط؛ إنها وطن للمظلوم والمخلص
والمجهول. فالإنسان يتألم من احتمال أن تضيع حكايته، وتأتي هذه الآية
لتقول: لا تضيع.

قد لا يعرف الناس ما قاومته كي تبقى مستقيماً.

لا يعرفون المعارك التي خضتها في صمت.

ولا الكلمات التي ابتلعتها حتى لا تظلم.

ولا الأموال التي تركتها لأنها لم تكن لك.

ولا الوحدة التي احتملتها لأنك رفضت الركون.

لكن الله ليس غافلاً.

وهذه المعرفة تكفي كي يواصل القلب طريقه.

الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ

يا قارئ سورة هود، لن تعدك السورة بأن البحر سيظل هادئاً، بل ستريك
كيف تعبر حين يصير الموج كالجبال.

ولن تعدك بأن كل من تحب سيركب معك، بل ستعلمك أن تناديه برحمة، ثم
تسلم قلبه لله.

ولن تعدك بأن القوة ستصير دائماً في يد الصالحين، بل ستريك رجلاً واحداً يقول لأمة كاملة: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾.

ولن تعدك بأن السوق ستكافئ أمانتك سريعاً، بل ستضع في قلبك: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

ولن تعدك بأن الليل قصير وفق إحساسك، بل ستقول لك: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ولن تعدك بأن الناس سيشكرون إصلاحك، بل ستعلمك أن تقول: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

ثم تتركك أمام التكليف الذي يختصر الرحلة كلها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.
لا كما كافأك الناس.

ولا كما عاملك خصومك.

ولا كما تسمح لك مخاوفك.

ولا كما تزين لك قوتك.

استقم كما أُمِرْتَ.

فقد يتغير العالم من حولك، وتغرق أرض ظننتها ثابتة، وتسقط جبال حسبتها حصوناً، ويصبح العالي سافلاً، ويتقدم فرعون قومه إلى النار؛ لكن الطريق إلى الله لا يتغير.

وإذا وجدت نفسك وحيداً، فتذكر أن الوحدة مع الحق ليست فراغاً. خلفك موكب طويل: نوح ومطرقته، وهود ويقينه، وصالح وناقته، وإبراهيم وضيافته، ولوط وغربته، وشعيب وميزانه، وموسى وعصاه، ومحمد ﷺ وقلبه الذي تثبته الله بهذه الأنبياء.

أنت لا تبدأ الطريق من أوله.

إنك تمشي فوق آثار أقدام مضيئة.

فأقم الصلاة.

ولا تركن.

وأوف الميزان.

وابن السفينة.

ولا تصعد جبلاً يעדك بالعصمة من دون الله.

وانظر في كل ليلة إلى جهة الفجر، وقل لقلبك مهما اشتد الظلام:

أليس الصبح بقريب؟

بلى.

الصبح قريب.

والعاقبة للمتقين.

والأمر كله لله.

وما ربك بغافل عما تعملون.

فهرس الكتاب

الصفحة	المحتوى
٣	المقدمة
٧	الفصل الأول: حين يبدأ الإصلاح من تصحيح المصدر
٢١	الفصل الثاني: الإنسان بين المنع والعطاء – امتحان القلب بتقلّب الأحوال
٣٧	الفصل الثالث: نوح عليه السلام – الصبر الذي بنى السفينة قبل أن ينزل المطر
٧٦	الفصل الرابع: هود عليه السلام – حين تغترب القوة بنفسها
٩٤	الفصل الخامس: صالح عليه السلام – خيانة النعمة قبل هلاك الحضارة
١١٢	الفصل السادس: إبراهيم ولوط عليهما السلام – الإيمان بين الضيافة والطهر
١٣٢	الفصل السابع: شعيب عليه السلام – فساد الميزان وسقوط الضمير الاقتصادي
١٥٣	الفصل الثامن: موسى عليه السلام – الرسالة في مواجهة السلطان
١٧٧	الفصل التاسع: الاستقامة التي شَيَّبَ رسول الله ﷺ
١٩٧	الفصل العاشر: حين تبقى الاستقامة ويزول الانهيار
٢٢٥	الخاتمة: سورة هود... دستور الثبات في زمن الفتن